محمَّد توفيق

الغَبَاءُ السِّيَاسِي

كَيْف يَصِل الغَبيُّ إلى كُرسيّ الحُكم؟



الغباء السياسي

كيف يصل الغبيُّ إلى كرسيّ الحكم؟

محمد توفيق

الطبعة الرابعة ...سبتمبر ٢٠١٣

رقم الإيداع ٢٠١٢/٨٨١٤

ISBN 978-977-6378-53-7

18 عمارات العرائس من شارع 306 ـ المعادي الجديدة ـ القاهرة

ت: 01282343879

01146335098

Email: elmasrypublishing@gmail.com

المدير العام: يوسف ناصف

تصميم الغلاف: أحمد مراد

تدقيق لغوي: محمد عبد الله عوض

الغباء السياسي

كيف يصل الغبي إلى كرسي الحكم؟

محمد توفيق

دار المصري للنشر والتوزيع

الإهـــداء

إلى جدتي -رحمها الله- التي كانت تقول لي كلما مرِضتُ "إن شاالله حبسني مبارك"

وإلى أمي التي تقول دائمًا "العيّل الغبي يتْكِرِه.. فما بالك بالريس"!

المحتويات

لطالما طرحت على نفسي السؤال الآتي: لاشك أن أحد العذابات الأبعث على القلق في حياة كثير من الناس هو اضطرارهم منذ الأزل إلى الاحتكاك بحماقة الآخرين. فكيف أمكن مع ذلك ألا يكون حاول أحد قط القيام بدراسة عن الحماقة؟

الفيلسوف الأسباني "خوسيه أورتيجا إيه جازيت" في كتابه الأشهر "تمرد الجماهير"

القانون يحمي المغفلين!

٨٠ مليونًا دفعوا ثمن هذا الكتاب لكنهم لم يقرؤوه!

الشعب المصري بكل تياراته، وفئاته، وطوائفه دفع الثمن. البعض دفع حياته، والبعض دفع حريته، والبعض دفع عقله، والبعض دفع عمله، والبعض دفع عزلته، والبعض دفع غربته، والبعض دفع آماله، والبعض دفع ماله. الكل دفع الثمن لكن شيئًا لم يتغير؛ لأن القانون يحمي المغفلين إذا صاروا حكامًا!

وقتها تصبح أدلة الإدانة هي نفسها حيثيات البراءة، ويخرج المتهم من القضية لعدم كفاية الأدلة، ويدفع المجني عليه أتعاب المحاماة؛ رغم أن الجميع كان شاهدًا على ما حدث. لكنها ضريبة الغباء السياسي الذي ظل حاكمًا ومتحكمًا ومسيطرًا ومتصدرًا المشهد السياسي بطول التاريخ وعرضه. ورغم الحديث الدائم عن نظرية المؤامرة والطرف الثالث، فإنني بعد بحث طويل وقراءة متأنية في كتب التاريخ تأكدت أن ظهور الطرف الثالث سببه غباء الطرف الأول، وإنه إذا كانت هناك مؤامرة ما كانت تستطيع أن تحقق أهدافها لولا "الغباء السياسي" هذا المصطلح الذي صكه

الرئيس السادات، وخلَّده أحمد زكي في "أيام السادات" لكن خلف هذا التعبير قصة حدثت في ٢ أبريل عام ١٩٧١ عندما ذهب ثلاثة من رجال عبد الناصر إلى جلسة "تحضير أرواح" لاستشارة الجن في مستقبلهم السياسي!

الثلاثة هم: الفريق محمد فوزي وزير الحربية الأسبق، واللواء شعراوي جمعة وزير الداخلية الأسبق، وسامي شرف سكرتير الرئيس عبد الناصر. وقد تم تسجيل الجلسة!

وما حدث في ٢ أبريل تكرر في ٤ مايو من نفس العام، وتم تسجيله أيضا. ويومها قام الرئيس السادات بإرسال التسجيلات في منتصف الليل مع ابنته إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل، لينشر نص التسجيلات التي تدين رجال عبد الناصر في جريدة "الأهرام"، لكن هيكل تردد في نشرها، وذهب إلى المفكر الكبير توفيق الحكيم ليطلعه عليها.

ويروي هيكل تفاصيل ما جرى بقوله: أعطيت توفيق الحكيم جلستين من جلسات تحضير الأرواح منقولة بالحرف على الورق كما نطقت بها أصوات أصحابها على أشرطة التسجيل المغناطيسية. وقرأ توفيق الحكيم، ثم قال لي "لو أنني كتبت مثل هذا في رواية لاتَّهمني الناس بأنني شربت نهر الجنون إلى آخر قطرة" ثم شرد لدقيقة مع خواطره، وعاد يقول "إنني مع النشر.. إن أسبابك للنشر أقوى من أسبابك في الامتناع عنه" هنا قرر هيكل النشر. قد تُصدِّق الواقعة، وقد ترى أن التسجيلات مُختلَقة، لكن الثابت الوحيد أن لدينا على هذه التسجيلات شاهدين هما: توفيق الحكيم ومحمد حسنين هيكل، وهناك ثلاثة أسباب تؤيد صحة هذه الواقعة:

أولها- أن الرئيس السادات اختار هيكل دون غيره ليرسل إليه

التسجيلات التي ستكون مبررًا في تصفية رجال عبد الناصر، وذلك قبل أن يصلا إلى مفترق الطرق في عام ١٩٧٤

ثانيها– أن الأستاذ هيكل اختار توفيق الحكيم ليكون شاهدًا على التسجيلات، رغم أنه بعد عام واحد فقط من نشر التسجيلات صار كلاهما طرفا في معركة كبيرة بسبب هجوم الحكيم على عبد الناصر في كتابه "عودة الوعي"، ويومها وقف هيكل ضده وهاجمه، وقال عنه "لم يكن هناك أسبق منه إلى حرق البخور أمام عبد الناصر"!

ثالثها– أن الدجال (وكان يعمل أستاذا جامعيا!) الذي ذهبوا إليه أوحى إليهم بأن يتقدموا باستقالاتهم، بهدف عمل فراغ دستوري، ليضعوا السادات في مأزق يضطر بعده إلى الرضوخ لهم، وقد فعلوا ذلك بالفعل في ١٥ مايو، أي بعد الجلسة الثانية لتحضير الأرواح بـ١١ يومًا فقط. لكن العرَّاف لم ينفعهم، فالسادات مثلما استطاع أن يخترق الجلسة بوضع أجهزة "التنصُّت" في حضرة ملك الجن، يبدو أنه "جَنَّد" العرَّاف نفسه، لينصحهم بتقديم استقالاتهم التي كان في انتظارها، فقَبِلَها على الفور، وأصدر قرارًا باعتقالهم، وبرر ذلك بعبارته الشهيرة "دُول المفروض يتحاكموا بتهمة الغباء السياسي"!

الفصل الأول

تراث من الغباء

"إذا كان الفراعنـة العظماء قد
تكفَّلوا ببناء الحضارة، فالفراعين
الحَمْقَـى قد تكفَّلـوا بهدمها!".

الفراعين

"بيبي الثاني" هو أول حاكم غبي عرفه التاريخ. اعتلى العرش وعمره ست سنوات، وبقي في السلطة ٩٤ عامًا، وقد عرفت مصر في عهده الفساد، والانحلال، والانقلابات، والحروب القَبَلية الأهلية، بل إن الناس قد ماتوا من الجوع، وعجزوا عن دفن موتاهم وكانوا يلقون بهم في النيل حتى أصبحت التماسيح ضخمة لكثرة ما تأكله، وانقلبت الأوضاع في المجتمع، فالأمهات لم يعدن ينجبن، والمرأة الثرية التي كانت ترتدي الكتان صارت تمشي ممزقة الثياب، والتي كانت تملك المرايا لم تعد ترى وجهها إلا على سطح الماء، وكان الأطفال يقولون يا ليتنا ما وُلِدنا في هذا الزمان، وصار اللصوص أغنياء! [١]

واستقل حكام الأقاليم بأقاليمهم واستبدُّوا بالأهالي، وفرضوا الضرائب الجائرة ونهبوا الأقوات وأهملوا أي إصلاح للريِّ والأرض وانضم إليهم الكهنة حرصًا على أوقافهم يبيحون لهم بفتاواهم الكاذبة كل منكر غير مبالين بأنَّات الفقراء وما يعانون من قهر وذُلٍّ وجوع، وكلما قَصدهم مظلوم طالبوه بالطاعة والصبر ووعدوه بحسن الجزاء في العالم الآخر!

---

[١] ألن جاردنر: مصر الفراعنة، ترجمة: نجيب ميخائيل إبراهيم.

لكـن عندما بلـغ اليأس غايتـه، خرج رجـل يُدعى "أبنـوم" يحرِّض الناس على الثورة ضد الظلم، فاستجـاب له الناس، وقام الشعب المصري بـأول ثورة عرفها التاريخ، وانهـارت إمبراطورية "بيبي" وسقطت الأسرة السادسـة، وكانت نهاية الدولة القديمة مـن عصر الفراعنة. "بيبي لم يكن طاغيـة، لكنـه كان غبيًّا، ومغيَّبًا عمـا يجري حوله، فكانـت قراراته تثير الناس، وتشحذ هممهم ضده، وتجعلهم أكثر سخطًا عليه، وكراهية له.

مثلما شهد تاريخنا الفراعنةَ العظام الذين بَنوا الأهرامات وشيَّدوا المعابد وصنعوا الحضارة وغيَّروا مجرى التاريخ، شهد أيضًا الفراعين الحَمْقَى الذين أفسدوا ما صنعه العظماء، والتاريخ هو مَن يحاكمهم ويحكم عليهم، ومحكمة التاريخ لا تُصدر سوى ثلاثة أحكام: إما بالجلوس بين الخالدين، أو بالذهاب إلى الجحيم، أو بالانضمام إلى التافهين الحَمْقَى الذين لم يفعلوا شيئًا، و لم يضيفوا جديدًا، وإن فعلوا أضرُّوا أكثر ممَّا نفعوا، وكانوا سببًا في انهيار دُوَلِهم. ففي نهاية كل دولة فرعونية تجد سلسلة من الحكام الضعفاء الذين يتسببون في انتشار الفساد والبلاء. والغريب أن الأنظمة (الفرعونية) لم تسقط بفعل الطغيان وحده، وإنما بفعل الطغيان المقترن بالغباء، فأغلب الطغاة والمستبدين الذين حكموا مصر في أثناء الحكم الفرعوني استمر حكمهم حتى وفاتهم بل إنهم ورَّثوا أولادهم وأحفادهم الحكم من بعدهم، لكن الدول الفرعونية الثلاث سقطت عندما صار الطاغية غبيًّا، وأصبح لا يدري شيئًا عما يجري حوله، فاختل تقديره للأمور، و لم يعد قادرًا على إحكام سيطرته والعودة إلى الإمساك بمقاليد الأمور.

فالأنظمة الساقطة في تاريخ الفراعنة بعضها كان مستبدًّا، وبعضها كان ضعيفًا، لكن الثابت الوحيد أن هذه الأنظمة أو الدول قد وصلت إلى خط النهاية عندما بلغ الغباء السياسي مداه والضعف منتهاه. وهذا ما حدث مع

ثلاثة ملوك تعاقبوا على كرسيّ الحكم، وهم: الملك "ساكرع" الذي حكم لمدة أربعة أعوام، وخلال فترة حكمه لم يفعل شيئًا بل إنه كان مجرد أداة في يد كهنة آمون، وهو ما تكرر في عهد الملك توت عنخ آمون الذي تولى الحكم لمدة ست سنوات فقط، وكان فى مرحلة الطفولة، ومات قبل أن يصل إلى مرحلة الشباب، وكانت السلطات كلها في يد الكهنة، والسؤال هنا من الغبى؟ هل هو الطفل الذى لا يدرك ما يجرى حوله أم النظام الذى سمح للأطفال أن يرثوا الحكم؟!

أما الملك " آي" فقد حكم أربعة أعوام، وكان طاعنًا في السن فعجز عن الإصلاح، وفشل مثل أقرانه "ساكرع" و"توت" في إدارة شؤون البلاد، وساد الاضطراب واستمر الفساد في عهده، و لم يستطع مواجهة الأزمات، فسقطت هيبة الدولة.

لكن المدهش أن توت عنخ آمون بَقِيَ، وتجاوزت شهرتُه أعمالَه وقدراته ومدة حكمه، وتلك الشهرة حصل عليها بفضل مقبرته التي اكتشفها عالم آثار بريطاني في وادي الملوك عام ١٩٢٢، لكنها عادة مصر أم الدنيا والعجائب التي قد تمنح الشهرة لعابري السبيل بينما تَضنُّ بها على العظماء الذين لم يتسع وقتهم لكتابة تاريخهم، بينما كان لدى الملوك من يكتبون عنهم ما فعلوه وينسبون لهم ما لم يفعلوه.

من هنا نجد حكامًا نالوا شهرة واسعة بفضل أشياء لا دخل لهم بها، ومن بين هؤلاء هناك تسعة من الملوك جاؤوا متتابعين على كرسيّ الحكم وهم: رمسيس الرابع، والخامس، والسادس، والسابع، والثامن، والتاسع، والعاشر، والحادي عشر، والثاني عشر، وهؤلاء حكموا مُددًا قصيرة، و لم يكن لأحدهم هَمٌّ إلا المحافظة على مركزه وممارسة شهواته، فاضطربت الأحوال وتفشّى الفساد حتى استقل الوجه البحري في عهد آخرهم

وكانت نهاية دولتهم. لكن أغرب ما فعله هؤلاء هم أنهم سطو على اسم الملك رمسيس الذي توقف نسل عائلته عند رمسيس الثالث!

فإذا كان الفراعنة العظماء قد تكفَّلوا ببناء الحضارة، فالفراعين الحَمْقَى تكفَّلوا بهدمها!

الخليفة الحمار!

هكذا تجد اسمه في كل كتب التاريخ!

فهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميَّة الحمار. آخر خلفاء بني أمية الذي تولَّى الحكم لمدة خمس سنوات فقط انهارت بعدها الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية، بعد أن انهزم مروان الحمار أمام العباسيين في معركة "الزَّاب" وهرب نحو الصعيد، فتعقبه عسكر بني العباس وألقوا القبض عليه في قرية أبو صير إحدى ضواحي الجيزة، وقتلوه شر قتلة، وطرحوا جثته في العراء حتى أكلت منها الذئاب والكلاب. و"الحمار لم تكن صفته وإنما كان لقبه، فقد كانت عادة العرب أن يلقِّب كل مائة عام حمار، فلما قارب ملك آل أمية مائة سنة، وجاء مروان فلقَّبوه بمروان الحمار، خصوصًا أنه كان مشهودًا له بالصبر الشديد على مواصلة القتال مثل الحمار. لكن هناك سببًا آخر جعل هذا الاسم مقترنًا به طوال هذه القرون، وهو أنه حرَّم لعب الشطرنج وأصدر أمرًا بعدم ممارسة هذه اللعبة وحدد ثلاث عقوبات لمن يمارسها وهي:

١- العقوبة الجسدية.

٢- إطالة فترة سجن المحبوس.

٣- حرمان من يلعب الشطرنج من حقه في أموال الدولة!

والسبب في ذلك أن الخليفة لاحظ أن لعبة الشطرنج كانت واحدة من أسباب الثورة على بني أمية وأن أغلب من يمارسونها من الثوار، ومن بينهم سعيد بن جبير الذي اشترك مع عبد الرحمن بن الأشعث في الثورة ضد عبد الملك بن مروان، وكان يستخدم الشطرنج في إعداد خطط مواجهة الحاكم وبسببها كان يجيد الكر والفر في المعارك.

هذا قدر مصر دائمًا فبعد أن شهدت ولاةً في مرتبة عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي السَّرح ومحمد بن أبي بكر وعمر بن عبد العزيز جاء إليها مروان الحمار، وكأنها ستصير عادة الحكم في مصر، فكلما تولَّى الأمر فيها رجل قوي خَلَفه على العرش رجل يتصف بالضعف والحُمق.

لكنٍ أشهر من اتصف بالضعف والغباء كان الحاكم بأمر الله الذي قيل إنه أصيب بالجنون، وحرَّم أكل الملوخية، ومنع ارتداء النساء الكعب العالي، وأمر الناس بالعمل ليلًا والنوم نهارًا!

فقد كان الحاكم بأمر الله واحدًا من أغرب حكام مصر؛ فقد صعد إلى السلطة في شهر رمضان سنة ٣٨٦ هجرية خلفًا لأبيه، وهو ما زال طفلًا في الحادية عشرة من عمره، وكان أبو محمد بن عمار يدير شؤون الدولة من خلف ستار، ولُقِّب بـ"أمين الدولة"، وأصبح المتصرف الوحيد في شؤونها، وكان ينافسه أبو الفتوح برجوان، الذي أطاح به خارج السلطة وأجبره على الهرب، لكن سرعان ما جنح برجوان إلى الطغيان والاستبداد فاعتبر نفسه الخليفة، وصار يستصغر الحاكم بأمر بالله، لكنه لم يدرك أن الطفل الصغير كبر وصار شابًّا. وكان أول قرارات هذا الشاب -أقصد الحاكم- قَتْل برجوان والتخلص من رجاله في الجيش والقصر لينفرد بالحكم. مسيرة الحاكم بأمر الله مليئة بالتناقضات فقد كان والده شيخ المذهب الفاطمي،

وأمه شقيقة بطريرك أقباط مصر! فجُن جنونه فجأة وهو يقبع في مغارة أعلى قمة جبل المقطم وشعر بأن صوتًا يناديه ويدعوه إلى التوفيق بين دين النصارى ودين المسلمين، واستخراج دين جديد، وقد بدأ الصبي الصغير في البحث عن هذا الدين الجديد على الفور، وهداه تفكيره إلى أنه ما دام الله واحدًا أحدًا فلماذا لا يتوحد جميع الأنبياء في واحد فقط؟ ولماذا لا يكون الحاكم بأمر الله هو هذا النبي الواحد؟![1]. ولكن عين الدولة كانت تراقب كل شيء، وكان القلق ينهش قلوب كل أفراد الأسرة الحاكمة خوفًا من هذا الانقلاب الذي يوشك الحاكم بأمر الله أن يقوده!

فمات الحاكم، وهو أعلى جبل المقطم، و لم يعرف أحد بقتله حتى عاد حماره الأشهب إلى القصر، وعليه بُرْدَته، وقد تلطخت بالدم عندئذ تأكد الناس في القاهرة من قتله، لكن أحدًا لم يعثر على جثته. والعجيب أنه حتى الآن لا يمكن الفصل بين حقيقة هذا الرجل وأسطورته، فقد قيل عنه كل شيء، و لم يُحسم مما قيل شيئا، سوى أنه كان حاكمًا جمع بين الضعف والغباء طوال ٢٥ عامًا جلسها فوق كرسيّ الحكم. لكن هناك حكامًا آخرين جمعوا بين الطغيان والغباء، ومن بينهم بل وعلى رأسهم أبو العباس السفاح، وهو أول خلفاء بني العباس، ومن اسمه نعرف أعماله ومآثره!

فلم يكن السفاح طاغية فحسب، وإنما كان أحمق الطغاة، ففي أول خطبة له قال للناس "استعدوا فأنا السفاح"!، وكان من الطبيعي أن يقول ذلك بعد أن قتل في مبايعته جنودًا لا حصر لهم من بني أمية –على حد تعبير السيوطي– واستهل فترة حكمه بإخراج جثث خلفاء بني أمية من قبورهم وجَلْدهم وحرق جثثهم ونثر رمادها في الريح، و لم يكن ذلك في بداية عهده فحسب وإنما كانت سياسته التي سار عليها.

[١] محمود السعدني: "مصر من تاني"، ص٤٠.

السفاح هو مثال الطغيان في كل العصور فعندما دخل دمشق أباح فيها القتل ثلاث ساعات، وجعل جامعها سبعين يومًا إسطبلا لدوابِّه وجِماله، ثم نَبَشَ قبور بني أمية فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطًا أسود، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجد جمجمة، أما هشام بن عبد الملك فقد وجده صحيحًا فأخرجه وضربه بالسَّوْط وهو ميت،وصلَبَه أيامًا ثم أحرقه، ودَقَّ رماده ثم ذَرَّه في الرياح. ولم تنج النساء، فقد أرسل امرأة هشام مع مجموعة من الخرسانية إلى البرية ماشية حافية حاسرة وجهها وجسدها عن ثيابها ثم قتلوها، ثم أحرق ما وجده من عظم ميت منهم، واستمر السفاح في سفكه للدماء، والتمثيل بجثث ضحاياه، فقتل في يوم واحد ٧٢ ألفًا عند نهر بالرملة [١].

إن ما فعله السفاح كان قمة الطغيان والغباء فقد دفع الثمن، فلو كان طغيانًا فحسب كان يكفيه أن يقضي على الأحياء لكنه لم يترك الأموات، فقضى في الحكم أربع سنوات فقط، ومات قبل أن يُتِم عامه الرابع والثلاثين.

هكذا الطغاة دائما يجمعون بين الغباء والتسلط والميل إلى العنف وإزهاق الأرواح وإراقة الدماء، فالحاكم الغبى دائما ما يجد فى السيف منقذاً له.

[١] الجزء العاشر من "البداية والنهاية" لابن كثير.

حكم قراقوش!

أعتقد أنه قد حان الوقت لنعتذر لـ"بهاء الدين قراقوش عن ظلمنا له طوال ثمانية قرون؛ فلم يكن في يوم من الأيام بهذه الحماقة التي صارت عنوانًا لتلك المرحلة التي نعيشها، ولم تصل قسوته إلى هذا الحد الذي وصل إليه أغبياؤنا، ولم تكن أعماله قد وصلت إلى هذه الدرجة من السوء الذي وصلنا إليه؛ فلم يصل إلينا أنه عذَّب امراة وجرَّها من شعرها في وضح النهار، ولم نسمع -رغم كثرة ما قيل عنه- أنه أمر جنوده بتعرية النساء أمام المارة، ولم تذكر كتب التاريخ أنه أمر بقتل أشخاص خرجوا ليتظاهروا ضده رغم كثرة ما قيل عنه ونُسب إليه. لقد ظلمْنا الرجل الذي أثنى عليه المؤرخ العظيم ابن إياس في مؤلَّفه البديع "بدائع الزهور" بقوله: "كان قراقوش القائم بأمور الملك، يسوس الرعية في أيامه أحسن سياسة، وأحبته الرعية ودعوا له بطول البقاء" وقال عنه ابن خَلِّكان في "وَفَيات الأعيان": "كان حَسَن المقاصد، جميل النية، وكانت له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين" ويقول عنه ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة": "كان وزير صلاح الدين بمصر الصاحب بهاء الدين قراقوش، صاحب الحارة المعروفة بسويقة الصاحب القديمة في الجامع الحاكمي، وكان رجلًا صالحًا غلب عليه الانقياد إلى الخير، وكان السلطان

يعلم منه الفطنة والنباهة، وكان إذا سافر السلطان من مصر إلى الشام في زمان الربيع كما هي عادته كل سنة، يفوِّض إليه أمر البلاد، لكنه في سنة إحدى وستين وخمسمئة حكمها منفردًا من غير مشاركة؛ لوفاة ولي العهد المشارك له في ذلك، فلم يستقم له الحال، ووُضعت عليه الحكايات المضحكة" قراقوش كان يعمل مساعدًا لصلاح الدين الأيوبي لمدة ثلاثين عامًا، بل إن صلاح الدين كان يترك له تدبير أمور مصر حين يغيب عنها في الحروب الصليبية، ويُنسب إليه أنه هو الذي حوَّل البلاد من المذهب الشيعي إلى المذهب السُّني، كما أنه أجرى العديد من الإصلاحات في نُظُم الري والضرائب والتعليم، وأَمَّن الطرق من اللصوص، وملأ خزائن الدولة بالمال ليساعد صلاح الدين على تحرير القدس.

لكن ظروف المرحلة تفرض على صلاح الدين أن يوجه أغلب جهوده إلى إعداد الدولة لخوض الحرب ضد الصليبيين الذين كان يحتلون بيت المقدس وقتها، فتوسعت الدولة في بناء القلاع والحصون والمنشآت العسكرية من إقامة الجسور وتمهيد الطرق، وكلها مهام ضخمة لم يجد صلاح الدين خيرًا من قراقوش ليقوم بالإشراف عليها، وكان مشهورًا بصبره وجَلَده وعزيمته الفولاذية التي لا تلين.

وكان أول عمل عظيم قام به قراقوش هو بناء قلعة الجبل، وكانت مقرًّا للنسر الإسلامي الذي اتخذه صلاح الدين شعارًا لدولته، وأصبحت من بعده مقرًّا للحكم في مصر حتى نقل الخديو إسماعيل مقر الحكم إلى قصر عابدين بالقاهرة في ستينيات القرن التاسع عشر.

وبعد أن فرغ قراقوش من بناء قلعة الجبل، قام ببناء قلعة المقياس بجزيرة الروضة، ثم سور مجرى العيون الذي ينقل المياه من فم الخليج حتى القلعة، وهو عمل هندسي عظيم بكل المقاييس لما فيه من دقة وحرفية هندسية

عالية، ثم شرع في بناء سور عظيم يحيط بالقاهرة والجيزة، وحشد له الآلاف من عامَّة الشعب، الذين قاموا بتقطيع أحجاره في صحراء الهرم، ويعتبر هذا العمل الضخم هو أحد أسباب كراهية العامة لقراقوش، الذين أحسوا بمرارة السُّخرة خلال هذا العمل الضخم.

وهذا هو ذنب قراقوش الوحيد الذي لم يغفره التاريخ رغم أعماله العظيمة التي كانت تكفي لتخليده كواحد من أعظم وزراء مصر في تاريخها، لكن قراقوش فعل ذلك بقسوة هزت الأبدان، وغباء صار مَضرِبًا للأمثال، فانطلقت النكات عليه لتخلِّده في صفحة واحدة مع الطغاة الحَمْقَى حتى صار اسمًا "حركيًا" لكل طاغية أحمق، والسبب في ذلك أنه كان ملكيًا أكثر من الملك، فلم تشفع له أعماله على كثرتها عند البسطاء الذين لا يقرؤون التاريخ لكنهم يتجرعون مرارته. لكن لو كان قراقوش بيننا الآن لتمت معاملته باعتباره من أولياء الله الصالحين، رغم غبائه السياسي الذي جعل الناس يروِّجون لما قاله منافسوه –حتى وإن ظلموه ونسبوا إليه ما لم يفعله– ويغضُّون البصر عن أعماله ويرددون ما قاله عنه أحد العاملين في ديوان صلاح الدين وهو أسعد بن مماتي صاحب كتاب "الفاشوش في حكم قراقوش" الذي أرَّخ فيه لحكم قراقوش وقال في مقدمة كتابه: "إنني لما رأيت قراقوش لا يقتدي بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، والشَّكيَّة عنده لمن سبق، ولا يهتدي عن صدق، ويشتطُّ اشتطاط الشيطان، ويحكم حكمًا ما أنزل الله به من سلطان.. صنَّفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين"

وقد سرد ابن مماتي أمثلة كثيرة تدل على غباء قراقوش وطغيانه ومنها أنه حرَّم أكل "الملوخية" على العامة، وكان اسمها "ملوكية" أي طعام الملوك، وقيل إن غلامًا لقراقوش قتل نفسًا فحكم عليه بالشنق، ثم تشفَّع لديه

الشفعاء وقالوا له: إنه حدادك يَنَعَل لك الفرس ويخدمك، فإن شنقته لم تجد غيره. فنظر قراقوش ناحية الباب ووقعت عينه على رجل قفَّاص فقال "هذا القفاص لا حاجة بنا إليه، فاشنقوه مكان الراكبدار"، وهي وظيفة الغلام الحداد عنده!

لم يكتف ابن مماتي بهذا بل إنه ذكر أن جنديًّا نزل في مركب، وكان به فلاح وزوجته وهي حامل في سبعة أشهر فصدمها الجندي وأسقط حملها فأخذ زوجها بتلابيبه وقاده إلى قراقوش، فقضى على الجندي أن يأخذ الزوجة ويطعمها ويكسوها ولا يعيدها إلى زوجها إلا وهي حامل في سبعة أشهر!

وقال ابن مماتي أيضًا إن رجلًا حملوه حيًّا ليدفنوه فصاح في النعش مستغيثًا بقراقوش، فلما سمعه قراقوش ترك المشيِّعين يمضون به وقال له: ويحك! أُصدِّقك وأكذِّب مائة من ورائك! وقيل إن مدينًا شكا إليه أنه يجمع دَيْنَه ويذهب إلى صاحب الدَّين فلا يجده، ثم يأتي هذا فيطالبه ويلح عليه وهو خالي الوفاض لا يملك السداد، فأمر قراقوش بحبس صاحب الدين حتى يعرف المدين موضعه متى جمع المطلوب منه، ولا يضيع الدين على صاحبه في البحث والتأجيل.

ربما كان ابن مماتي مُغرِضًا، خصوصًا أنه هو الآخر كان من وزراء صلاح الدين، وربما كان قراقوش مظلومًا وليس ظالمًا، وربما وربما، لكن الثابت الوحيد أن ما قاله ابن مماتي بقي، وكي يبقى كان لا بد أن يكون قد أصاب جزءًا من الحقيقة؛ فقراقوش لم يكن فاسدًا أو كاذبًا لكن مشكلته التي ستظل تطارده على مَرِّ الزمان هي أنه كان سلطة بلا عقل، فقد كان يظن أنه يفعل كل شيء من أجل مصر، ولم يهتم بسماع شكوى أهلها وكان كل ما يشغله هو أن يفعل ما يراه صحيحًا دون النظر إلى آمال الناس

وآلامهم، فذهبت إصلاحاته وبقي غباؤه حتى قيل إنه نشر قميصه على الحبل فوقع القميص، فتصدق بألف درهم وقال: لو كنت ألبسه ساعة وقوعه لانكسرت!

العائلة المالكة

كان الخديو إسماعيل في إحدى زياراته لباريس، فسمع عن قصر جميل لأحد الأغنياء، فأظهر لمحدثه رغبة في مشاهدة القصر إعجابًا بالفن الجميل، فلما علم صاحبه بذلك بادر بدعوة الخديو إلى مأدبة أقامها له، وكانت لصاحب القصر فتاة جميلة أُعجب بها سُموُّه، وبعد أن فرغ من تناول الطعام سأل الخديو صاحب القصر عما إذا كان يرغب في بيعه، وعن الثمن الذي يريده فيه، ولم يكن الرجل يودُّ التفريط في قصره، ففكر في الخلاص من هذا المأزق بأن طلب لقصره ثمنًا باهظًا قدَّره بخمسة ملايين فرنك راجيًا أن يحول ذلك دون رغبة الخديو في الشراء.

ولكن خاب ظنه، فقد قبل إسماعيل الثمن وأمر باستدعاء كاتب العدل (المختص بكتابة العقود) ليكتب العقد، فسأل عن اسم البائع وقيَّده، ثم سأل عن اسم المشتري وعندئذ أشار إسماعيل بإصبعه إلى ابنة صاحب القصر قائلا: اكتب اسم "المدموازيل" [١]!

[١] د.نعمات أحمد فؤاد: "من عيون الكتب في تراجم شرقية وغربية"، ص١٦٣

وبذلك عاد القصر لصاحبه عبر ابنته، ودفعت مصر ثمن حماقة حاكمها ونزواته.

كان إسماعيل يريد أن يصنع لنفسه مجدًا يُخلَّد به في كتب التاريخ، وقد فعل كل شيء من أجل هذا الهدف، فشيَّد كوبري قصر النيل بأسديه الشهيرين، والجمعية الجغرافية، ودار الكتب والوثائق، والمتحف المصري، وبنى ثلاثين قصرًا أشهرها عابدين، والقبة، والتين، والجزيرة، والإسماعيلية، وأنشأ أول أوبرا عرفتها مصر، وأسرف في الحفلات الباذخة التي أقامها وأشهرها حفل افتتاح قناة السويس في ١٦ نوفمبر ١٨٧٩، وقُدِّرت تكاليف الحفل بمليون ونصف المليون جنيه، لذلك كان من البديهي أن تقدَّر الديون في عهد إسماعيل في أقل التقديرات بنحو ٩١ مليون جنيه، وهو رقم كبير جدا إذا ما عرفنا أن كل ميزانية الدولة في ذلك الوقت كانت ما بين ٤ و٦ ملايين جنيه ممَّا يعني أنه اقترض مقدَّمًا ما بين ١٥ و٢٣ ضعف ميزانية مصر.

وكان من بين الأبواب التي أنفق فيها إسماعيل ملايين الجنيهات دون فائدة تعود على مصر استرضاء الباب العالي في تركيا (السلطان عبد العزيز في ذلك الوقت) لتغيير نظام توارث العرش وجعله لابنه توفيق بدلا من أخيه مصطفى فاضل الذي كان من المفترض أن يرث الحكم باعتباره أكبر أفراد أسرة محمد على سنًّا، وقد أنفق إسماعيل على هذا المطلب وحده أكثر من ثلاثة ملايين جنيه، ثم عاد واستجدى السلطان عبد العزيز، وقدم إليه المزيد من الهدايا، والمنح، ومضاعفة الجزية السنوية التي تُدفع لتركيا (من

٤٠ إلى ٧٥٠ ألف جنيه) لمنحه لقب "خديو وهو لقب أعلى من باشا ومن والٍ و لم يسبق أن حصل عليه أحد الولاة.

وقد استجاب السلطان لمطالب إسماعيل التي قبض ثمنها، واستجاب أيضا لضغوط الدول الأجنبية لخلع إسماعيل عن العرش بعد أن استنفدوا أغراضهم منه!

فبعد أن تراكمت الديون على مصر المبتلاة في حكامها، أصبح الخديو عاجزًا عن الحكم وصار فرضا عليه أن يقوم بإصدار مرسوم في ٢ مايو ١٨٧٦ بإنشاء ما أطلق عليه صندوق الدين يتولى إدارته مندوبون أجانب ظلوا يمارسون مهمتهم على امتداد ٦٢ سنة إلى أن تم إلغاء الصندوق في عام ١٩٣٧، وكان قد باع قبل ذلك وبأبخس الأسعار أسهم قناة السويس التي اكتتب بها سعيد باشا في بداية تكوين الشركة (١٧٨ ألف سهم).

والغريب أن سعيد نفسه كان قد وافق على حفر القناة لسبب غاية في الحماقة والسُّخف وقد ذكره ديليسيبس في مذكراته قائلا: مهارتي في ركوب الخيل كانت من أهم الأسباب التي جعلت سعيد باشا يوافق على مشروع حفر قناة السويس، فعندما عرضت مشروع حفر القناة عليه جمع قواده وشاورهم في الأمر، ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل، ويقفز بجواده فوق الحواجز، والخنادق أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف انحازوا إلى جانبي، ولما عرض عليهم الباشا سعيد تقريري عن المشروع بادروا إلى القول إنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه، وكانت النتيجة أن منحني الباشا ذلك الامتياز العظيم[١].

[١] صلاح منتصر: "من عرابي لعبد الناصر"، ص ١٨

سعيد وإسماعيل وجهان لعملة واحدة حتى لو اختلفت أعمالهما ونياتهما، وقدراتهما، فكلاهما كان سببًا في أن وقعت مصر تحت سيطرة الدولة الأجنبية، وقد دفع إسماعيل ثمن ما فعله حين أصدر السلطان عبد العزيز فرمان خلعه في يوم ٢٦ يونيو ١٨٧٩ وأبلغ توفيق بقرار توليه العرش، وذهب توفيق إلى أبيه في سراي الإسماعيلية ودخل عليه وحده وما إن رأى إسماعيل ابنه حتى وقف وقال له بقلب منكر: أفندينا..!

وكان ذلك اعترافًا من إسماعيل لتوفيق ابنه بأنه أصبح الخديو الجديد، وبعد ثلاثة أيام حملت الباخرة "المحروسة" إسماعيل إلى منفاه في نابولي بإيطاليا.

إسماعيل كان يراهن على المستقبل ويقول إنني أبذر ذهبًا لعل المستقبل ينصفني، لكنه في الحقيقة كان يريد أن ينثر الذهب في العيون ليعميها عن رؤية الحقيقة، فقد بنى وشيَّد وعمَّر، ولا ينكر هذه الحقيقة إلا جاحد أو جاهل، لكنه في الوقت نفسه وضع مصر على أول طريق الاستعمار الذي استكمله نجله توفيق بحماقة منقطعة النظير.

فقد عزَّ على الخديو توفيق أن يستجيب لمطالب الشعب في ثورة عرابي ولم يتصور أن انحيازه إلى الشعب يمكن أن يمنحه القوة التي تجعله يجلس مستقرًا على العرش، فراح يخطط للاستعانة بقوى أخرى كانت جاهزة وعلى استعداد.

فبعد أسابيع فوجئ الشعب بالموافقة على طلب من الحكومتين الإنجليزية والفرنسية بوصول قطع من أسطوليهما إلى الإسكندرية "في زيارة ودِّية" وبالفعل بدأ وصول البوارج والمدمرات يوم الجمعة ١٩ مايو ١٨٨٢

و لم يُضِع الإنجليز والخديو الوقت فقد تم اعتقال زعماء الثورة العرابية، وعلى رأسهم أحمد عرابي ومحمود سامي البارودي، وكل من اتصل بهم أو شارك في حركتهم الوطنية حتى بلغ عدد المقبوض عليهم نحو ٣٠ ألفًا، وصدر الحكم بإعدام السبعة الكبار، وفي مقدمتهم عرابي والبارودي، وبعد ذلك خُفِّف الحكم إلى النفي المؤبد، كما صدرت مئات الأحكام بسجن العديد من العسكريين وتجريدهم من رتبهم.

لكن كل ما فعلته أسرة محمد علي من مساوئ وجرائم وسوء تقدير وسوء نية وغباء يمكن أن نضعه في كفة، ونضع في الكفة الأخرى ما فعله الخديو توفيق في ١٩ سبتمبر ١٨٨٢

يومها ارتكب أكبر حماقة عرفتها مصر حين أصدر مرسومًا خديويًا "بإلغاء الجيش المصري"!، وبمقتضى هذا المرسوم تم تسريح جميع الجنود والضباط وإعادتهم إلى قُراهم ومُدنهم باستثناء الذين قُبض عليهم وقُدِّموا للمحاكمة وقُضي بسجنهم، وعهد الخديو إلى ضابط إنجليزي بإعادة إنشاء جيش مصري جديد تم تقليص عدد أفراده إلى ثلاثة آلاف فرد! ووضع القائد الإنجليزي نظامًا جديدًا اسمه البدل النقدي أو "البدلية" كما كان يُطلق عليها عامة الشعب، يقضي بأن يدفع من يريد الإعفاء من التجنيد بدلًا نقديًا ممًّا جعل التجنيد مقصورًا على الطبقة الفقيرة الأمية، وعين الإنجليز قائدًا عامًّا للجيش أُطلق عليه اسم "السردار" وقائدا آخر للبوليس اسمه "القومندان العام" ومستشارًا إنجليزيًا في كل وزارة، ومحاكم خاصة لمحاكمة الأجانب، وأغلق الإنجليز تسع مدارس حربية من عشر كانت تستقبل سنويًا ١ طالب كما أغلقوا الترسانة البحرية بالإسكندرية وكل مصانع المدافع والذخيرة التي أقامها محمد علي!

لقد خسرت مصر بفضل الغباء السياسي ما لم تخسره في كل حروبها والتاريخ خير شاهد على ذلك، لكن المدهش أن مصر رغم كثرة من حكموها من الطغاة والبُغاة والحَمْقَى والمغفلين بقيت وعاشت، وسادت وتسيَّدت، وحكمت وتحكمت، وكانت دائمًا أكبر مِمَّن حكموها، وأبقى مُمَن أرادوا لها الفناء.

الفصل الثاني

الغباء السياسي

" يُعامَـل الحاكم باعتبـاره حكيمًا، عظيمًا، عليمًا، بطلاً، وطنيًا، فذًّا، فدائيًا، بارعًا، وعبقريًا حتى يغادر كرسي السلطة فيكتشف الجميع حمقه! ".

العسكري رئيسا

الغباء السياسي يبلغ ذروته ويصل إلى مداه حين يصير العسكري حاكمًا بدلا من أن يكون حَكمًا!

آفة الرجل العسكري أنه يظن أن كل كلمة تخرج من فمه بمثابة أمر واجب النفاذ، وأن على الجميع السمع والطاعة، وأن على من يخالف رأيه ولا ينصاع لأوامره أن يتحمل نتيجة مخالفته للقوانين وخروجه على القواعد العامة. لذلك كل محاولة للعسكري أن يصبح مدنيًا في حكمه باءت بالفشل حتى عندما كانت النيات صادقة ومخلصة؛ فالعسكري يختزل الدولة في شخصه ويجعل من نفسه وصيًا على الشعب ومهيمنًا عليه ومسؤولًا لا يمكن مساءلته، فهو دائمًا فوق القانون والدستور، باعتباره واضع الدستور ومنظِّم القانون، ولعل أبرز مثال على ذلك ما قاله الرئيس السادات للكاتب العظيم أحمد بهاء الدين: "اللي زيِّنا هما اللي بيعملوا الدساتير يا بهاء"!

هذا أصل الدَّاء، فالحاكم حين يكون عسكريًا يتصرف وكأنه الحاكم بأمره، فلا يشاور أحدًا سوى رفاق السلاح، ولا يسمع لأحد إلا من يتفق مع هواه، ويظن أن الجميع عليهم أن يقولوا له "تمام يافندم.. عُلِم ويُنفَّذ"،

حتى وإن اختلفوا معه وأرادوا أن يعبروا عن رأيهم، فلا بد أن يدركوا أن عليهم أن يعملوا وفقًا لقاعدة "نَفِّذ واتظلّم"!

إنها مدرسة "اربط الحمار مطرح ما يعوز صاحبه" فليس مطلوبًا منك أن تفكر، فهناك من يفكر لك، ويعرف مصلحتك أكثر منك، وبالتالي فمخالفته جريمة تستوجب العقاب وتنفيذ أوامره فرض غير قابل للنقاش، فالجندية ترسَّخت مفاهيمها على الشراسة، والطاعة العمياء، والاتِّكال على الغير في التفكير والتدبير[١]، وأن الأقدمية هي المعيار الوحيد للحكم على الكفاءة.

تلك المفاهيم تُشكِّل عقيدة العسكريين ودستورهم -وهذا لا يعيبهم حتى وإن اختلفنا معهم- لكنها لا تصلح للتنفيذ إلا داخل المعسكرات التي تتصدرها لافتة "ممنوع الاقتراب أو التصوير" ولا يمكن القبول بها إلا على الأوراق التي تحمل ختم "سري للغاية" لذلك حين يخرج العسكري من معسكره يجد نفسه غريبًا، وحتى تزول الغرابة يحاول أن يفرض حياة الجندية -التي لا يعرف غيرها- على المدنيين، فلا يفرِّق بين الحياة في ميادين القتال حيث الأمر واجب النفاذ والحياة في الميادين العامة حيث أنت حر ما لم تضر.

حكم العسكر يقوم على أعمدة أساسية لم يحدث أن تخلَّى عنها في أي بلد حكمه عسكر وأدار شؤونه عسكريون، تتمثل هذه الأعمدة في[٢]:

١- بث الذعر والرعب في المجتمع، بحيث يكون المواطن خائفا طول الوقت على حياته وأمانه ويومه وعياله ورزقه، والمواطن المرعوب لا يطلب ساعتها إلا الأمن، ولا يفكر في حرية التعبير

---

[١] عبد الرحمن الكواكبي: "طبائع الاستبداد"، ص ٢٥

[٢] إبراهيم عيسى: أعمدة العسكري، جريدة "التحرير"، ١٢ فبراير ٢٠١٢.

أو ديمقراطية القرار، وربما لا يفكر حتى في لقمة العيش، فيختصر كل احتياجاته في إعادة إحساسه بالأمن، وهنا يستسلم لمن يقول له إنني الذي سأجلب لك الأمان وسأعيد إليك الشعور بالأمن على حياتك وبيتك، ومقابل هذا سوف تتركني أتصرف بحرية كي أتمكن من تحقيق حلمك، إنه النظام الذي يقايض حرية المواطن بأمنه!

٢- اتهام المختلفين مع "العسكري" والمعارضين له بالخيانة والعمالة، فعلى سبيل المثال أكثر المقولات الرائجة مثلًا في فترة الستينيات هي "الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب"

٣- احتكار الوطنية وتوزيع صكوك الوطنية بمعرفة الحاكم العسكري الذي يملك وحده أن يقول "فلان هذا وطني حقيقي وعلان هذا عميل خائن"، ثم إن تعريف الوطنية سيكون هو الولاء للحكم العسكري وطاعته، وليست الوطنية هي الانتماء إلى الوطن وحرية اختيار الأفكار والرؤى التي تسهم في تطوره، فليس مهمًّا أن تكون ما تكون في الفكر والعقيدة، المهم أن تكون تابعًا مواليًا لـ"العسكري"، ستكون ساعتها الوطني الصافي المصفّى، بينما لو قلت إن "العسكري" لا يعرف أو لا يفهم أو فاشل أو يقودنا نحو انهيار سياسي وانحدار اقتصادي فأنت ساعتها عميل لجهات أجنبية وخائن للوطن.

٤- التعبئة والحشد هما وسيلة الحكم العسكري في استنفار المواطنين، حيث لا يعتمد على إعلام حر عاقل أو رسائل منطقية أو وسائل رشيدة، بل هو يعتمد تمامًا على إعلام أجير وغوغائي ودعائي فجّ ورخيص يقوم ببث الذعر في الناس والتحذير المهووس

بمخاطر قادمة وأعداء متربصين في الخارج والتحريض على عملاء وخونة في الداخل وسعي لتحقير العقل والمنطق لتعظيم الطاعة والانصياع، ثم إنه لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، فيقول الجميع نفس الكلام الغَثّ، يكررونه ويلِحُّون عليه ويزِنُّون على الناس به حتى يصدقوه ثم يرددوه كالببغاوات، وينقادوا كالقطعان وراءه دون ذرة من تفكير أو مناقشة.

لكن لا يمكن أن نضع العسكريين كلهم في سلة واحدة، ولا يمكن إصدار حكم واحد عليهم وإلا صرنا مثل من يؤمن أن "الحسنة تخص والسيئة تعم" تلك الحكمة التي يؤمن بها العسكريون، لكننا لا نريد أن نحاكمهم ونحكم عليهم بها، فالزعيم جمال عبد الناصر لا تصح مقارنته بالرئيس السادات، والاثنان لا يجوز وضعهما في ميزان واحد مع مبارك.

فقد عاشت مصر طوال ٦٠ عامًا تحت حكم العسكر، عرفت خلالها رئيسًا ذكيًا ورجاله أغبياء، ورئيسًا متغابيًا، ورئيسًا غبيًا (هذا إذا استثنينا محمد نجيب لقصر المدة، ولأنه كان يملك ولا يحكم) أو كما قال سعيد صالح في مسرحية "كعبلون": "أمي اتجوِّزت تلات مرات الأول أكِّلنا المشّ، والتاني علِّمنا الغش، والتالت لا بيهشّ ولا بينشّ فصدر الحكم بحبسه ستة أشهر لإهانة رموز الدولة.

هذه طبيعة العسكر لا يقبلون النقد ولا يتقبلون النصيحة، ويتملكهم العناد الذي يولِّد الغباء، ويحرصون على تفصيل القوانين التي تضمن لهم البقاء وتقييد الحريات، رغم أنه قبل قرابة ٢ عامًا من وصولهم إلى السلطة استطاع كاتب مثل الشيخ عبد العزيز البشري بفضل دستور ٢٣ أن يصف رئيس وزراء مصر أحمد زيور باشا، بأنه والحمار سواء!

فقد كتب الشيخ البشري يقول: "لو أن زيور باشا ركب حمارًا

فلا أحد سيحدد من هو الراكب ومن هو المركوب"! وفي مقال آخر اتهم الشيخ البشري أحمد زيور باشا رئيس وزراء مصر بأنه "لص ومرتشٍ وينبغي أن يحاكم لولا أنه سمين للغاية ولذلك سيحتار القضاء في محاكمة زيور باشا لأنه من الظلم اعتباره كله مسؤولًا عما اقترفت يداه، فهل هي يده المسؤولة أم كرشه الذي يطل عدة أمتار إلى الأمام أم صدره الذي يشبه بطيخة صيفي أصابها التلف أم أنفه الذي يشبه الكوز أم رأسه الذي يشبه قربة السقا؟"

لكن العجب ليس في ما كتبه الشيخ البشري ولكن العجب الحقيقي أن محكمة جنايات مصر حكمت ببراءة الكاتب، وقالت في حيثيات حكمها إن من حق الكاتب أن يسخر من رئيس الوزراء؛ حيث إن رئيس الوزراء شخصية عامة يجوز للمواطنين أن يسخروا منها!

ويعلِّق عمنا محمود السعدني على هذه الواقعة قائلًا: يا سبحان الله! لقد تدهور كل شيء في مصر الآن حتى إن أقل موظف عمومي فيها لم يعد يحتمل النقد، وصار الكاتب مُطارَدًا كاللص، وهو مذنب دائمًا حتى تثبت براءته.

هذه هي آفة حكم العسكر التي لا يمكن صرف النظر عنها، أو اختصارها في الاسم والصفة إلا إذا أردنا أن نكرر القصة القديمة التي تقول: ذهب الحمار إلى الأسد بصفته ملك الغابة وقال له يا أسد أريد أن أغيَر اسمي، فقد مللت من مناداة الحيوانات لي بـ"يا حمار"! فنظر إليه الأسد مندهشًا وقال له "وبماذا تريد أن تسمَي نفسك؟"، فقال له الحمار "أريد أن أسمِّي نفسي (سمكة)"، فقال له الأسد بلا تردد "خلاص روح أنت سمكة"، فخرج الحمار فَرِحًا مسرورًا يقفز ويقول "أنا سمكة"، فقابل الثعلب فسأله "إيه حكاية أنا سمكة؟"، فقال له الحمار"أنا اسمي دلوقتي

سمكة" فسأله الثعلب "وهل تعرف العوم والسباحة والغطس؟"، فقال الحمار"لا"،عندها قال له الثعلب "إذا كنت سمكة ولا تعرف السباحة فأنت (حمار)"!

أنت تعلم قطعًا مَن الحمار!

كيف يصل الغبيُّ إلى كرسيّ الحكم؟

السؤال الذي يطرح نفسه دائمًا هو: كيف يصل الأغبياء والمتاغبون إلى كرسيّ الحكم في مصر بهذه السهولة على مر العصور؟

والجواب: هناك أربع طرق شهيرة ومعروفة ومحفوظة وتاريخية يمكن أن يصل بها غبي أو متغاب إلى كرسيّ الحكم في مصر:

الطريقة الأولى- التوريث، وله طريقتان:

- **التوريث المباشر**: ويحدث في النظام الملكي عندما يكون الغبي سياسيًّا هو الوريث الشرعي للحكم، وبالتالي يتسلم الحكم بسهولة دون أن تكون له أي خبرات أو مهارات تجعله يستطيع إدارة شؤون البلاد، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة وبارزة منذ أيام الفراعنة، مرورًا بفترة الخلافة ووصولا إلى حكام أسرة محمد علي.
- **التوريث غير المباشر**: ويحدث في النظام الجمهوري، حيث يقوم رجال الرئيس الذين يرون أن مصلحتهم تقتضي أن يصبح نجل الرئيس المتوفَّى رئيسًا، بتزييف إرادة الشعب، وتزوير الانتخابات، وعادة ما يكون هذا الوريث الذي يجمع في أغلب الأحيان بين الضعف والغباء هو كلمة النهاية في هذه الحقبة التاريخية.

الطريقة الثانية– النائب: يختاره الحاكم بنفسه ليكون خليفته، ويعيَنه نائبًا تكريمًا له على إخلاصه له طوال حياته، وغالبًا ما يأتي هذا الشخص خلفًا لشخصية عظيمة نالت ثقة الناس وحققت أحلامهم وسهرت على راحتهم وجعلتهم مطمئنين لكن بمجرد رحيل هذا الحاكم الاستثنائي يصير الكرسيّ واسعًا على من يأتي خلفًا له، وهنا تظهر قدرات النائب الحقيقية وأن مكانته لم يصل إليها إلا باعتباره خادمًا مطيعًا لسيده، وهذا ما حدث عندما قام القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي باختيار الملك العزيز بالله لكي يخلفه على العرش وكان أسوأ شيء في تاريخ صلاح الدين، فقد حاول خليفته هدم الهرم الأصغر وأنفق في ذلك أموالًا طائلة لاعتقاده أن تحت الهرم كنزًا ثمينًا من الذهب، و لم يكتف بذلك بل إنه أباح الدِّعارة وتدخين الحشيش وتفرَّغ للنساء[١].

الطريقة الثالثة– بعد ثورة لم تكتمل: هذه تعد أغرب حالة في وصول الغبي إلى كرسيّ الحكم، فعادة بعد الثورات التي لم تكتمل أهدافها يظهر اليأس وتتفشَّى روح الإحباط بين الناس وتنتشر الفوضى، ويُصَاب الناس بحالة من الخوف والفزع تجعلهم يرضون بأي شخص يوفر لهم الأمن دون النظر إلى تاريخه أو سلوكه أو أفكاره، وهنا يظهر شخص لا يمتلك أيَّ مواهب أو قدرات سوى أنه صاحب خلفية عسكرية فيوافق الناس عليه طلبًا للأمن والأمان الذي يكتشفون بعد فترة أنه كان أمانًا وهميًا وواهيًا!

الطريقة الرابعة– الرحيل المفاجئ للرئيس: بمعنى أن يموت الرئيس دون أن يكون من حوله قد اتفقوا على من يخلفه، وهنا يخرج من الكواليس فجأة شخص لا أحد يستشعر الغدر نحوه، بل يظن الجميع أنه غبي ويسهل

---

[١] محمود السعدني: "مصر من تاني"، ص٤٩.

السيطرة عليه لكنه في حقيقة الأمر متغابٍ، وينتظر اللحظة المناسبة ليقفز فوق كرسيّ السلطة، وهو غالبًا إذا صعد يصبح نزوله أقرب إلى المستحيل، ولدينا في ذلك أمثلة كثيرة لعل أبرزها الرئيس الراحل أنور السادات الذي اختاره الزعيم جمال عبد الناصر ليكون نائبًا له، وكان كل مَن حول عبد الناصر يتعاملون معه باعتباره لا يفهم شيئًا، ونفس الشيء ينطبق على الرئيس المخلوع حسني مبارك الذي لم يكن لديه أي طموح أكثر من أن يكون سفيرًا لمصر في لندن، لكن السادات رأى فيه صورة الموظف الذي ينفّذ أوامر رئيسه دون نقاش، ويظهر ذلك بوضوح في حوار السادات مع الكاتب الصحفي عبد الستار الطويلة، حين سأله عن سر اختياره لمبارك نائبًا له فقال: مبارك لديه ثلاث مزايا:

الأولى– أنه لا يملك تاريخًا سياسيًّا ومن ثَمَّ فهو وجه جديد.

الثانية– أنه طيار مستقيم أخلاقيًّا وجندي مخلص ووطني.

الثالثة– أنه رياضي يحافظ على صحته.

السادات كان واضحًا فلم يقل إن مبارك يمتلك قدرات عقلية عالية أو ذكاءً لافتًا أو حتى علمًا أو موهبة أو كفاءة في القيادة أو مهارة في الإدارة لكنه اختاره ليكون موظفًا عنده، لكن بغياب السادات وجد مبارك نفسه الرجل الأول، وصاحب القرار الأوحد وبهذه الطريقة، ودون أن تتوافر لديه أي صفات استثنائية صعد مبارك إلى كرسيّ السلطة في غفلة من الزمن، وحكم مصر ثلاثين عامًا دون أن تكون له أية شرعية سوى اختيار السادات له باعتباره من أبطال حرب أكتوبر، تلك العبارة التي ظل إعلام مبارك يرددها، ويعزفها بكل النغمات، وفي كل المناسبات، وكأنه حارب وانتصر وحده، بل إنه بعدما ثبّت أركان سلطانه سطا على لقب رئيسه

الذي اختاره وصار بطلا للحرب والسلام بدلا من السادات الذي علَّمه كل شيء وأثَّر في تكوينه السياسي بكل الوسائل.

لكن أهم ما تعلَّمه مبارك من السادات هي تلك الحكمة الخبيثة التي تقول: "عليك أن تظل غبيًّا في نظر الناس حتى يتعاطفوا معك ويعطفوا عليك، ولا تستفز من حولك ولا تشعرهم بوجودك حتى تصعد إلى كرسيّ السلطة في هدوء ودون الدخول في نزاع مع أحد، ثم بعد ذلك حاول أن تؤكد في كل مناسبة أنك تسير على خُطى من سبقوك وتبدي اهتمامًا شديدًا وحبًّا جارفًا لمن قبلك حتى تستقر في موقعك ثم تنقلب على الجميع"

لكن الشيء الوحيد الذي لم يتعلمه مبارك هو: ماذا يفعل لو قامت ثورة ضده وطالب الناسُ بإسقاطه؟!

لكنه ككل الحَمْقَى من الطغاة لم يفكر في هذا اليوم مطلقًا، فقد تسلل إلى السلطة مدَّعيًا الغباء وخرج منها وقد أعماه الغباء والعناد.

دور الغباء في نجاح الثورة

سأل عمنا محمود السعدني، حسني مبارك: ما شعورك وأنت تجلس على المقعد الذي جلس عليه رمسيس الثاني ومحمد على وجمال عبد الناصر؟

فأجابه مبارك: "لو عاجبك الكرسي خده وأنت ماشي"!

هذه الواقعة لا تحتاج إلى شرح أو تفسير أو حتى إلى مزيد من التفاصيل، فقد دار هذا الحوار بين عمنا السعدني والمخلوع مبارك في عام ١٩٨٢ عقب عودة محمود السعدني من منفاه، وقد أراد مبارك بهذا اللقاء أن يفتح صفحة جديدة مع المثقفين، لكنه كما يقول المثل الشعبي "جاء يكحّلها عماها"!

فقد خرج عمنا السعدني من اللقاء غاضبًا، و لم يعد إلى بيته لكنه ذهب إلى منزل صديقه محمد حسنين هيكل ليروي له ما حدث، وهو في حالة شديدة من الانزعاج، فهو لا يصدِّق أن رئيس مصر الجديد على هذا القدر من الغباء!

كان مبارك وقتها لم يُتِم عامه الرابع بعد الخمسين، وكان في قمة لياقته الذهنية والجسدية، وكان يردد أن "الكفن مالوش جيوب.. وأن مدة

رئاسية واحدة تكفي ورغم ذلك كان أول وصف أُطلق عليه في بداية عهده أنه يشبه "البقرة الضاحكة" وقد شاع هذا الوصف في السنوات العشر الأولي من حكمه الذي استمر ثلاثين عامًا، وكان الخيال الشعبي المصري قد ربط بين صورته وصورة غلاف أحد أنواع "الجبنة"، فلم يكن وقتها صناع الطاغية قد ظهروا على السطح، فقد كانوا يعملون في الخفاء ليضمنوا البقاء.

لكن حين وصل مبارك إلى عامه الثالث بعد الثمانين كانت أمراض الشيخوخة قد ظهرت، وانتشرت في جسده وحُكمه، وصار صناع الطغاة ورفاق نجله متحكمين في كل شيء، لكن شيئا وحيدا لم يتغير في حياة مبارك هو نسبة ذكائه، فهو لم يكن عنيدًا بقدر ما كان يحتاج دائمًا إلى وقت طويل للفهم والبحث والتفكير.

وهذا ما أكده الدكتور أسامة الباز المستشار السياسي للمخلوع، عندما قال للأستاذ هيكل قبل لقائه الأول مع مبارك: "لا تتطرق في الحديث مع مبارك إلى قضية فكرية أو نظرية، فهو ببساطة يجد صعوبة في متابعة ذلك، وإذا جرت معه محاولة للتبسيط بالشرح، فإنه سوف يشرد من محدثه، ويتوقف عن المتابعة"

وأضاف الباز مخاطبًا هيكل: "أنا أعرف أسلوبك في الحديث، فأنت تستطرد فيه أحيانًا، ثم تذهب إلى خاطر يلوح أمامك، ثم تعود إلى سياقك الأصلي بعده، لكن مبارك لن يتابعك في ذلك، كَلِّمه في موضوع واحد في المرة الواحدة، ولا تدع الموضوعات تتشعب، وإلا فسوف تجد نفسك تتكلم بعيدًا وهو ليس معك"

لكن سواء أكان مبارك غبيا أم متغابيًا في بداية حكمه، فما جرى في نهاية حكمه يؤكد أنه دفع الثمن، والدليل على ذلك ما حدث في مساء

الثلاثاء الأول من شهر فبراير عام ١١ ٢ عندما قام مبارك بإلقاء خطابه الثاني في أيام الثورة، وقد أعلن فيه عدم نيته لترشيح نفسه للرئاسة مرة أخرى، وأنه لا يريد سوى أن يُنهِي مدة حكمه، وأن يموت في وطنه ويُدفَن فيه، ويومها كسب تعاطف ملايين المصريين من البسطاء الذي صدَّقوا ما قال، وبدؤوا يتناقشون في إتاحة الفرصة له لمدة ستة أشهر يدير البلاد خلالها نائبه عمر سليمان.

لكن غباء مبارك كان في قمته في صباح اليوم التالي حين حرَّض هو وأعوانه مجموعة من البلطجية المأجورين ليقتلوا المتظاهرين، واستخدموا أكثر الطرق العدوانية بدائية، فانطلق البلطجية على ظهور "الجمال" و"الخيول" وفي أيديهم المولوتوف من ميدان مصطفى محمود بالمهندسين إلى ميدان التحرير ليقتلوا الثوار ويقوموا بفض الاعتصام ليسقط عشرات الشهداء ومئات المصابين من الثوار تحت أقدام الجمال.

ليُسدَل الستار على نظام مبارك بموقعة "الجَمل التي كانت تتويجًا لمجمل أعماله الفاسدة وجرائمه طوال ثلاثين عامًا، فقد كانت تلك الواقعة هي فصل الختام في حكم مبارك الذي اختار أكثر الطرق حماقة ووحشية ليختتم بها فترة حكمه، ويؤرِّخ بها لغباء نظامه الذي توقفت أفكاره عند فترة الجاهلية.

وذلك بعد أن استنفد قوته وقواته في ضرب المتظاهرين بالرصاص الحي والمطاطي والخرطوش والقنابل المسيلة للدموع منتهية الصلاحية في يوم الثامن والعشرين من يناير حين خرج ملايين المصريين يعلنون نهاية عصر مبارك.

قدرات مبارك الحقيقية وشيخوخته ظهرتا بوضوح في الساعات الأخيرة لحكمه، فقد حاول استخدام كل الحيل القديمة لكنه فشل تمامًا،

وكان من بين هذه الحيل خطاباته التي كانت أحد أسباب إصرار الشعب على رحيله، فقد أظهرت أنه خارج الزمن وأنه لا يدرك ما يحدث، ولا يعي ما يجري حوله.

وقد بدا ذلك واضحًا في الخطاب الأخير قبل التَّنحِّي بيوم واحد فقط عندما خرج بخطاب ركيك أحبط الشعب وزاد من حماس الثوار الذين رفعوا أحذيتهم في الميدان ردًّا على الخطاب، فكان التنحي في اليوم التالي.

المدهش أن خطابات المشير محمد حسين طنطاوي بعد الثورة كانت نسخة من خطابات الرئيس المخلوع مبارك في أثناء الثورة، وكان من اللافت أن هناك أربعة أخطاء تكررت بحذافيرها في الخطابات وهي:

١- التأخر الشديد في توجيه الخطاب، وعدم الاستجابة للمطالب إلا بعد أن يكون الشعب قد تجاوزها.

٢- اتهام قوى خفية بالمسؤولية عن الأحداث وتحميلها كل شيء باعتبارها الطرف الثالث.

٣- تكرار إذاعة جملة "خطاب هام بعد قليل قبل ساعات طويلة من إذاعة الخطاب ممَّا جعل الناس تشتاط غضبًا، هذا بجانب أن الخطابات لم تكن تَحمل أيَّ جديد بل كانت في أغلبها تحمل نبرة العند والتحدِّي.

٤- الأخطاء الفادحة والفاضحة في "مونتاج" الخطابات، فقد شعر البعض أن هذه الأخطاء نوع من التعالي الشديد عليهم، بينما شعر البعض الآخر أنها تعكس نمط تفكير وطبيعة حكم وغباء نظام.

من هنا كان طبيعيًا أن تسير الفترة الانتقالية على نفس درب مبارك، فالإنكار للحقيقة والعناد مع الرأي العام والانعزال والبطء في اتخاذ القرار

•

وكأن شيئًا لم يحدث، وكأن الثورة لم تقم، بل إن الثورة المضادة استمدت قوتها بفضل غباء إدارة الفترة الانتقالية، دون أن تكون في حاجة إلى أي مؤامرات.

عرّافة الرئاسة

الخرافة لا حدود لها، ولا يؤمن بها إلا الحَمْقَى والمغفلون والعاجزون عن العمل، والخائفون على نفوذهم من ذوي القدرات الضعيفة.

هؤلاء يدركون أنهم وصلوا إلى السلطة في غفلة من الشعب، وأن استمرارهم في مناصبهم مرهون باستمرار هذه الغفلة، لذلك يرون أن قراءة الطالع أهم كثيرًا من قراءة الواقع، وأن القوى الغيبية وحدها تستطيع إبقاءهم في مناصبهم وتحفظ لهم نفوذهم السياسي الذي لم يتحقق وفقا للمنطق وإنما تحقق لغياب المنطق!

بينما مَن وصلوا إلى السلطة بعد صراعات كبرى لن تجدهم يؤمنون بالخرافة، فالرئيس السادات كان يسخر من العرافين، وكان يرفض التسليم لهم أو الجلوس معهم، وذات مرة طلبت منه حرم الرئيس الإسرائيلي حاييم هرتسوج أن تقرأ له الكف، فاعتذر لها، وقال: أنا لا أحب هذه الممارسات.

بينما كانت زوجته السيدة جيهان تنتظر رأي العرافين، فقد قيل إنها كانت تستعين بهم دائمًا، بل إن هناك واقعة شهيرة عن تنبوء عرافة لها بأنها

ستصبح سيدة مصر الأولى، وقالت لها العرافة: إنها ستصبح ملكة مصر في الوقت الذي كانت هي وزوجها –المفصول من الجيش– يبحثان عن أجرة البيت فاستغرقا في الضحك من سذاجة هذه العرافة.

لكن الغريب أن إحدى العرَّافات اليهوديات تنبأت في ١٩٨١ بقتل الرئيس السادات قبل نهاية العام وقد نشرت الصحف الإسرائيلية هذا الكلام وقتها!

ومثلما كان السادات لا يؤمن بالخرافات كان عبد الناصر، لكنه كان يتعامل مع العرافين والسحرة لتسلية ضيوفه، ومن بينهم الشيخ محمد لبيب، الذي كان يستدعيه لتسلية الضيوف بألعابه الغريبة، وليست فيها خدعة واحدة، فكلها عيني عينك –على حد تعبير أنيس منصور– فهو يضع الكوب في جيبك ويستخرجه من جيب أي واحد من الحاضرين، ويلقي بالكوتشينة إلى السقف فتستقر هناك ويستدعيها ورقة ورقة، وقد طلب ذات مرة من السيدة أم كلثوم خاتمها في حضور عبد الناصر فرفضت، فأخذه من زوجها الدكتور حسن الحفناوي ووضعه في كوب من الماء وألقاه من النافذة وطلب منها أن تبحث عنه في حقيبة يدها، فرفضت دخول العفاريت في شنطتها، وأشارت ناحية أنيس منصور الذي كان موجودًا بين الحضور وقالت: عندك أنيس وكلكم عفاريت زي بعض! وأخرج الخاتم من جيبه!

لكن على عكس عبد الناصر والسادات كان مبارك؛ فقد كان يؤمن بالخرافة إلى حد الهَوَس، فعلاقته بالعرافين بدأت في نهاية الخمسينيات عندما كان ضابطًا في السودان والتقى بعرَّاف سوداني تنبأ له بأنه سيصبح رئيسًا لمصر، في الوقت الذي كان لا يتعدى طموحه السياسي أكثر من

محافظ أو سفير، وهو ما جعله يأخذ الأمر بجدية عندما تم تعيينه نائبا للرئيس السادات، فقد قيل إنه كان يتردد على عرّافة في مصر الجديدة تقرأ له الطالع.

كان يمكن أن تظل المسألة سرًا، وأن لا يعلم أحد شيئًا، لكن "أم ماجد السيدة البدوية التي ذهبت إلى مبارك في مستشفى شرم الشيخ بعد الثورة، ودخلت إلى حجرته في الوقت الذي كانت فيه المستشفى أقرب إلى ثكنة عسكرية، وكان مبارك ينام تحت الحراسة المشددة، وبالتالي فإن وصول أي شخص إلى المستشفى لا إلى غرفة الرئيس المخلوع يُعدّ عملًا خارقًا للطبيعة.

دخول "أم ماجد" إلى غرفة مبارك من المؤكد أنه تم بناءً على دعوة من سوزان مبارك، لأنه ليس طبيعيًا أن تذهب العرافة في هذا التوقيت دون أن يطلبها أحد، لكن جاءت في مهمة محددة وعاجلة وهي أن تقرأ الطالع لمبارك وتخبره بالمستقبل الغامض الذي ينتظره.

إنها عرافة الرئاسة التي كان يلجأ إليها الرئيس وزوجته في الأزمات، ولم يكن ممكنًا في أزمتهما الكبرى أن يسيرا دون مشورتها ليفتضح أمر الرئيس والعرافة.

إيمان مبارك بالعرافين لم يقتصر على من هم بداخل البلاد، ففي عام ١٩٨٢ كان مبارك في باريس حين أحضر له الدكتور بطرس غالي منجّمة فرنسية كانت شهيرة في أوساط الدبلوماسيين وقالت المنجّمة لمبارك ضمن نبوءات أخرى كثيرة: "ستموت في السنة التي تعين فيها نائبًا لك"، ويبدو أن هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل مبارك يرفض طيلة حكمه تعيين نائب له.

لكن قيل إن هناك سببا آخر وهو أن جمال عبد الناصر اختار السادات ليكون نائبًا له؛ لأنه كان أقل ذكاءً منه، واختار السادات مبارك نائبًا له لنفس السبب، أما مبارك فلم يعين نائبًا لأنه لم يجد من هو أغبى منه!

انتهت النُّكتة، رغم أن الواقع أكثر سخرية.

النُّكتة السياسية

سألوا سعد زغلول: ما أصعب سنة في حياتك؟

فقال: السنة اللي نفاني فيها الإنجليز.

وسئل عبد الناصر نفس السؤال، فقال: سنة النكسة.

وسئل السادات نفس السؤال، فقال: سنة أولى إعدادي!

هكذا النُّكتة دائمًا ترفع حكامًا، وتخسف الأرض بآخرين، ولا رقيب عليها، ولا ضابط لها، فهي التاريخ من وجهة نظر الشعوب، وليس وفقًا لما يراه كَتَبَة السلاطين، فتاريخ العالم هو تاريخ السلطة، لأن التاريخ –مع الأسف الشديد– لا يهتم بالشعوب ولا يحترم الضعفاء ولا يتعقب المغمورين ولهذا السبب فالتاريخ أكثره مزوَّر وأغلبه أكاذيب –مثلما يقول عمنا محمود السعدني– لذلك اخترع المصريون النكت.

فالنُّكتة هي حزب الأغلبية في مصر، وهي التدوين الشعبي، والتاريخ الشفهي لمعاناة البسطاء، وهي مصر من الباب الخلفي، حيث يدخل المهمَّشون والعامة الذين وجدوا في النُّكتة ضالتهم، فحافظوا عليها

واعتبروها ميراثهم الحقيقي، وتناقلوها جيلًا بعد جيل، ليخلَدوا الذين أحبوهم، ويصبُّوا لعناتهم على من يكرهونهم، لذلك للنكتة في مصر أهمية خاصة ومكانة متفردة فأغلب رؤساء مصر كان ينتظرون سماع "آخر نكتة" ليعرفوا آراء الناس دون رقيب وبغير أقنعة.

لكن الزعيم جمال عبد الناصر كان أكثر حكام مصر اهتمامًا بالنُّكتة، فقد كان يعرف "آخر نكتة" من كبار الصحفيين الذين كان من حقهم الاتصال به وكان بعضهم يدفع لمساعديه من المحررين مكافأة مجزية عن كل نكتة يوصلها إلى الرئيس قبل غيره، وقد كان للنكت تأثير كبير على قرارات الرئيس بل إنه في إحدى المرات خصص جزءا من خطبته ليتحدث عن النُّكتة بعد أن وصلت السخرية إلى المؤسسة العسكرية، وقال يومها: "الشعب المصري يسمع أي حاجة وينكت عليها، وده شعب عمره سبعة آلاف سنة وقهر كل الغزاة وكسرهم، وخلَّص عليهم من قمبيز إلى نابليون وقعد ينكت عليهم، شعب له فلسفة وطنية، وشعب صلب، قوي، لكن هو شعب يحب النُّكتة وأنا باعتبر ده ميزة لأنه بيفلسف بيها الأمور فإذا جه أعداؤنا واستغلوا فينا هذه الطبيعة عشان يحققوا أهدافهم لازم نكون ناصحين.. كل فرد يكون ناصح"[١].

هذا الكلام قاله عبد الناصر بعد النكسة في أول خطاب له بمجلس الأمة، لكن النكت لم تتوقف، وإنما حرص الناس على تغيير مسارها فبدلًا من أن تصيب الجندي ركزت على القائد، فقد قيل:

– قال عبد الحكيم عامر لشمس بدران: "مدير مكتبي ده شخص غبي"!

[١] عادل حمودة: "النُّكتة السياسية"، ص ٣٠.

- إزّاي؟

استنّى.. واستدعى عبد الحكيم مدير مكتبه وقال له: روح بيتي شفني هناك ولّا لأ؟

فخرج الضابط، وغادر المبنى، وبعد فترة عاد ليقول للمشير:

للأسف يافندم سعادتك مش ف البيت.. ثم أدّى التحية وانصرف.

فالتفت المشير إلى شمس بدران قائلا: "مش قلت لك إنه غبي.. كان يوفر المشوار ويسأل عني في التليفون"!

عدد كبير من رجال عبد الناصر كانوا بمثابة الملهِمين لمؤلفي النكت، وكان من بين هؤلاء صلاح نصر مدير المخابرات العامة الأسبق، الذي قيل عنه إن جمال عبد الناصر كان في منطقة الأهرامات، ووجد تمثالًا ضخمًا فسأل عن اسمه فلم يعرفه أحد، فاتصل عبد الناصر بصلاح نصر، وسأله عن اسم هذا التمثال، فاستأذنه في نصف ساعة، ثم عاد إليه وقال له: يا ريس التمثال ده اسمه "أبو الهول"، فقال له عبد الناصر:عرفت إزّاي؟ فأجاب صلاح نصر: التمثال اعترف يا ريس!

وقيل أيضا:

إن جمال عبد الناصر احتاج إلى مترجم، فسأل عن أفضل مترجم، فقالوا له: الدكتور الفلاني.

فطلب من المخابرات أن يحضروه، وبعد أسبوع سأل عبد الناصر صلاح نصر عنه.. ولماذا لم يأتوا به؟

فقال له: "إحنا جبناه يافندم، واعترف، و حوكم، وأُعدم"!

النُّكتة كانت دائمًا بمثابة التأريخ الشعبي للغباء والاستبداد، وهذا هو أصل الداء الذي وضع المفكر الفذ عبد الرحمن الكواكبي يده عليه منذ أكثر من مائة عام حين قال: "المستبد يكره العلماء والأذكياء، ويحب الحَمْقَى والجهلاء، لأنه يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علمًا، لذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم عاقل، ويبحث عادة عن الغبي المتصاغر المتملق، الذي يمكنه أن يضعه حيث يشاء، دون أن يناقشه أو يزعجه، أو يقلق من انقلابه عليه، وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله "فاز المتملقون"

نعم فاز المتملقون سواء أكانوا أغبياء أم مدَّعي الغباء. فقد صاروا بمرور الزمن حكامًا يأمرون فيُطاعوا، ويتمنون فتتحقق أمانيهم، ويقررون مصائر العباد، ويقودون البلاد إلى الهلاك، فلا يخفى على المستبد مهما كان غبيًّا أنه لا استعباد إلا ما دامت الرعية حمقاء!

والمتأمل في حالة مصر يجد أن كل حاكم ظالم يعرف أن سلطاته تزيد وتتسع وتتضخم بفعل كثرة الحَمْقَى والمغفلين والجهلاء، فالمستبد لا يخشى علوم اللغة، تلك العلوم التي يرى أن أكثرها هزل وهذيان يضيع به الزمان، وكذلك لا يخشي العلوم الدينية المختصة بالعلاقة بما بين العبد وربه لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة.

لذلك يرى الكواكبي أن العوام هم قوة المستبد وقوُتُه، بهم يصول ويطول، يأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقائه حياتهم، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف في أموالهم يقولوا كريم، وإذا قتل منهم و لم يمثِّل يعتبروه رحيمًا، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حَذَرَ التوبيخ،

وإن نقم عليه منهم الأُباة قاتلهم كأنهم بغاة، وأنهم يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة.

من هنا كانت مصر دائمًا وجهة الأغبياء والمتغابين في الحكم، ففي مصر –دون غيرها– يفضل أن يكون الحاكم إما غبيًا أو متغابيًا حتى يظل أطول فترة ممكنة في السلطة، لكنه رغم ذلك يعامَل باعتباره حكيمًا، عظيمًا، بطلًا، وطنيًا، فذًّا، فدائيًا، رائعًا، عالمًا، وعبقريًا حتى يغادر كرسيّ السلطة فيكتشف الجميع حُمْقَه!

لكن جمال حمدان كان يضع يده على سبب آخر كان وراء كثرة الحَمْقَى الذين حكموا مصر وهو "أن مصر وحدها تسمح للرجل العادي المتوسط بل للرجل الصغير بأكثر ممًّا ينبغي، وتفسح له مكانًا أكبر ممًّا يستحق، بينما تضيق أشد الضيق بالرجل الممتاز، إذ لا مكان له في توسُّطها ووسطيتها، وأفضل مكان له خارجها، فشرط النجاح والبقاء في مصر أن تكون اتِّباعيًا لا ابتداعيًا، تابعًا لا رائدًا، محافظًا لا ثوريًا، تقليديًا لا مخالفًا، وواليًا لا معارضًا"

لكن رغم ذلك ظلت مصر دائمًا قادرة على الثورة وإزاحة الطغاة وكأنها أرادت أن تحقق نبوءة الأثري الفرنسي الذي قال:

أمة أتت في فجر الإنسانية بمعجزة "الأهرامات" لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى، أو معجزات! أمة يزعمون أنها ميتة منذ قرون، ولا يرون قلبها بارزًا نحو السماء من بين رمال الجيزة! لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش إلى الأبد!

كان هذا الأثري الذي عاش في الماضي يرى مستقبل مصر أفضل من

أي مصري، فمصر رغم كل ما عانته من قهر وظلم واستبداد واستعباد، ورغم قسوة المحتلين وكثرة الطامعين، ورغم المحن الشديدة والغباء الأشد بقيت صامدة كالأهرامات.

الفصل الثالث

الغباء الأمني

"لو وضعنا كل أشكال الغباء في كفة
والغبــاء الأمني في كفة لرجحت كفة
الغبــاء الأمني، وانكســر الميزان!".

خالد سعيد

كانت مصر يَقظة في تلك الليلة –على غير عادتها– رغم أن الساعة كانت قد تجاوزت الثانية صباحًا.

فنحن في يوم السادس من يونيو سنة ١ ٢، وهذا هو اليوم التالي للذكرى الثلاثة والأربعين للنكسة، لكن يوم السادس هو دائمًا يوم النصر.

في هذا اليوم، وتحديدًا في الإسكندرية التي لا ينام فيها أحد في الصيف، ذهب شاب عمره ثمانية وعشرون عامًا ليجلس في أحد مقاهي الإنترنت المجاورة لبيته بمنطقة كليوباترا، وفجأة دخل مقهى الإنترنت اثنان من المخبرين تابعان للمباحث أرادا تفتيشه بموجب قانون الطوارئ، لكنه رفض، وسألهم عن سبب تفتيشه أو إذن نيابة، فكانت الإجابة بضربة على وجهه البريء، تلتها ضربات من كل حدب وصوب، وفي كل مكان من جسده النحيل حتى فارق الحياة.

ثلاثة أيام فقط عرفت بعدها مصر من أقصاها إلى أقصاها اسم شهيد جديد لكنه مثلما رفض أن يظهر بطاقته دون إذن من النيابة، رفض أن يكون كسائر الشهداء، فكانت وفاته سببًا في حياة بلد ظن الجميع أنها ماتت من كثرة ما نامت.

إنه خالد محمد سعيد، الشهيد الذي كانت مصر يقظة يوم وفاته، ووقفت ضد القتلة الذين قادهم الغباء وحرَّكهم الكبر والعناد، فكانت قسوتهم المفرطة وغرورهم اللعين أحد أهم أسباب إيقاظ روح الثورة عند المصريين.

لكن خالد دفع أغلى ثمن للغباء، فكان يمكن للقتلة أن يكتفوا بضربة واحدة موجعة و"ضربة تفوت ولا حد يموت" أو حتى يضربوا بذكاء كعادة أغلب محترفي التعذيب فلا يتركوا أثرا، لكن الغشاوة والغباوة كانت قد أعمتهم، وظنوا ككل القتلة أن الجريمة ستقيَّد ضد مجهول أو ضد القتيل نفسه!

لكن مصر كانت قد بدأت تنهض من سباتها الطويل، ففي التاسع من يونيو كانت قصة خالد في كل مكان، لكن في اليوم التالي كانت الحماقة في قمتها، فتم إخلاء سبيل المتهمَين، فبدأت موجة من الاحتجاجات تتوالى في الإسكندرية، فقرر النائب العام المستشار عبد المجيد محمود إحالة التحقيق إلى نيابة استئناف الإسكندرية وندب لجنة ثلاثية من مصلحة الطب الشرعي بالقاهرة برئاسة كبير الأطباء الشرعيين.

لكن في يوم ٢٣ يونيو كان الغباء قد وصل مداه، حين أعلن المحامي العام لنيابة استئناف الإسكندرية في مؤتمر صحفي براءة مخبرَي الداخلية، وأوضح أن سبب الوفاة كان "إسفكسيا الاختناق بانسداد المسالك الهوائية بجسمٍ غريب عبارة عن لفافة بلاستيكية تحوي نبات البانجو المخدَر"!

إذن.. لم يكتف زبانية حبيب العادلي بأن تُحفظ القضية، وتُسجَّل ضد مجهول، لكنهم قرروا أن يصلوا بالحماقة إلى أقصى مدى لها وأن يجعلوا الضحية مذنبًا، وطبقا لهذا التقرير فإنه سيتم استدعاء أسرة خالد سعيد للتحقيق معها في النيابة بتهمة البلاغ الكاذب!

هنا وصلت مصر عند مفترق الطرق، فالغضب وصل إلى ذروته، و لم يعد هناك سبيل سوى خروج المصريين إلى الشارع، وبالفعل بعد يومين فقط خرج عدة آلاف من المصريين في أكبر مظاهرة احتجاج في الإسكندرية، وكان من بين المتظاهرين الدكتور محمد البرادعي، وحمدين صباحي، والمستشار محمود الخضيري، وجورج إسحاق، وأيمن نور، تنديدًا بما وصفوه بـ"عمليات تعذيب منظمة" للمعتقلين في أقسام الشرطة، وقد شارك في المظاهرة عدد من قيادات جماعة الإخوان المسلمين، وحركة "٦ أبريل"، والجمعية الوطنية للتغيير، وحزب الغد، إلى جانب عدد من المتظاهرين يمثلون اتجاهات وتيارات متنوعة، رافعين لافتات عليها شعارات مثل "تسقط الدولة البوليسية، يسقط قانون الطوارئ، كلنا خالد سعيد، يسقط نظام الاستبداد"

كان ذلك يوم الجمعة الخامس والعشرين من يونيو، لتكون أول "جمعة غضب" يعرفها الشعب المصري قبل سبعة أشهر فقط من ثورة ٢٥ يناير!

كانت تلك هي الشرارة والبشارة الأولي للثورة، لكن الغباء الأمني لم يتوقف عند هذا التاريخ و لم يقف عند هذا الحد، بل إنه صار في كامل قوته وسطوته في أثناء وبعد الثورة وطوال الفترة الانتقامية –أقصد الانتقالية– التي –لهول ما مورس فيها– ظننا أنها تعني أن ينتقل الثوار خلالها إلى الرفيق الأعلى.

فمنذ قامت الثورة والغباء الأمني يتصدر المشهد بمفرده، بل ظهرت لنا أشكال أخرى من ذلك الغباء، فشاهدنا منصور عيسوي –أول وزير داخلية بعد الثورة– ينكر كل شيء، ينكر وجود قناصة في الداخلية، وينكر ضرب المتظاهرين، وينكر إطلاق الرصاص على الثوار، وينكر

استخدام القنابل المسيلة للدموع، إنه كان ينكرها كلها تماما حتى ظننا أنه ينكر قيام الثورة.

فاستمر مسلسل العنف والغَشَم الأمني سائدًا كأن شيئًا لم يكن، وتزايدت أعداد الشهداء كل يوم، فمن مظاهرة للأقباط أمام ماسبيرو تحوّلت إلى مجزرة تم دهس الشهداء فيها بالمدرعات، إلى مظاهرة في شارع محمد محمود راح ضحيتها ٥٢ شهيدًا –وفق الأرقام المعلنة– إلى اعتصام أمام مجلس الوزراء تحول في لحظة غباء إلى كارثة كشفت عورات حكم العسكر بعد أن كشف بعض الحَمْقَى من الضباط عورات النساء.

وكأن تاريخنا كله محنة، وأيامنا كلها كربلاء، وكأن نزار قباني ما زال بيننا يرصد ويكتب.

الغباء الأمني

لكن منصور عيسوي ليس واحدًا!

ففي الحادي والعشرين من شهر فبراير من عام ١٩٦٨، هتف طلاب مصر "لا صدقي ولا الغول عبد الناصر هو المسؤول"، ويومها كانت الشرطة جاهزة بكل وسائل العنف تجاه الطلاب المتظاهرين في الشوارع اعتراضًا على نتائج محاكمة قادة سلاح الطيران في نكسة ٦٧، ويروي الدكتور ثروت عكاشة في مذكراته مطاردة قوات الشرطة للطلاب، ثم قيامها باستخدام الأعيرة النارية التي أدت إلى سقوط الكثيرين منهم، بل إنها أدت إلى إصابة بعض من تابعوا الاشتباكات من الشرفات، وكانت المفارقة الطريفة التي صاحبت هذه الأحداث؛ هي إشادة وزير الداخلية بدور قوات الشرطة في فض المظاهرات من دون إطلاق عيار ناري واحد ومن دون إصابة أي مدني، ثم إعلان أنه ولأول مرة في التاريخ المصري تقع الإصابات في صفوف قوات الشرطة لا في صفوف المتظاهرين!

كان وزير الداخلية يومها هو شعراوي جمعة.

فالأمن في مصر دائمًا هو الحاكم، والعقل المفكر، والحل الجاهز، والاختيار الأول في كل الأزمات، فلم يعرف رجال الحكم سواه في

مواجهة الجماهير الغاضبة، ولم يتعلم رجال الأمن طريقة لمواجهة الاحتجاجات سوى الغاز والرصاص الذي يجبر أي متحدث على الصمت الطويل.

هكذا آمن أغلب سلاطين مصر وأمرائها وملوكها ورؤسائها على اختلاف عصورهم وأفكارهم، فمنذ عصر البطالمة بدأ التداخل بين الجيش والشرطة حين انضم أفراد الشرطة إلى صفوف المحاربين، كما انضم بعض أفراد الجيش إلى الشرطة وربما أسهم استمرار هذا الخلط الوظيفي لاحقا –لفترات طويلة– في اهتزاز وتشوش بعض المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها كل وظيفة بمنأى عن الأخرى، فهدف المحارب في الجيش هو حماية الوطن من هجمات الأعداء الخارجيين بينما هدف الشرطي هو الحفاظ على نظام المجتمع وحماية المواطنين وتأمين حقوقهم وحرياتهم في الداخل[١].

واستمر هذا الخلط بين رجل الشرطة ورجل الجيش في عصور الخلافة، ففي عهد الظاهر بيبرس تم تكليف الشرطة بمهام عسكرية مثل قياده الجيش والقتال علاوة على مهامها الأصلية، وقد اختص صاحب الشرطة كذلك بتطبيق الحدود القرآنية دون الحاجة إلى أمر قضائي، ووصلت سلطاته حدَّ الحكم بالإعدام، بل وكان يقوم بتنفيذ الحكم بنفسه إن أراد!

وقد ظهر استخدام العنف والتعذيب من قبل الشرطة ضد الخصوم السياسيين، وقد بلغ التعذيب وتوحُّش الوُلاة مبلغًا رهيبًا في بعض الفترات؛ حتى رُوِي عن عمر بن عبد العزيز أنه جلس ذات يوم قبل خلافته يستعرض الوُلاة في جنبات الدولة الإسلامية؛ فصرَّح بما يشعر به من هول تجاههم قائلا: الحجاج في العراق، والوليد في الشام، وقِرة في

[١] بسمة عبد العزيز: "إغراء السلطة المطلقة"، ص ٢٩

مصر، وعثمان في المدينة، وخالد في مكة.. اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجُورًا فأَرِح الناس

وتذكُر د.سيدة كاشف في دراسة لها بعنوان "مصر في عهد الإخشيديين" أن رؤساء الشرطة قد اتَّبعوا سياسة القمع الشديد لإقرار الأمن، وقد اشتهروا بالقسوة والظلم والبطش حتى ضربت بهم الأمثال. وفي عصر المماليك ظلت العقوبات التقليدية التي تمارسها الشرطة قائمة، واستُحدثت وظيفة "المشاعلية"؛ وهم الذين يتولون قطع الرقاب، وعرفت الدولة المملوكية عقوبات غاية في القسوة والبشاعة منها "التوسيط"؛ وهو شطر الجسم قسمين، والعصر حتى الموت، وقلع الأضراس وإعادة دقها في الرأس، وقاد أمراء المماليك مجازر متعددة ضد عامة الشعب، وكان منهم من يقوم بالتعذيب بيديه، إذ يقتلع العيون ويقطع الألسنة، وحين هُدم السجن الحصين "خزانة الشمائل وُجدت به جثث قتلى وعظام موتى كثيرة من ضحايا هؤلاء الأمراء.

من هنا صار الشرطي خصمًا وحكمًا وجلادًا يعامل أبناء وطنه باعتبارهم أعداء الوطن، فيرى المعارض خائنًا، والمختلف عميلًا، والرافض مأجورًا، والثوري خارجًا على القانون، وبالتالي ليس غريبًا أن يطلق عليهم الرصاص عند كل احتجاج، ويتعامل بكل قسوة ووحشية ضد النساء ويُفْرِط في استخدم الغاز في تفريق المظاهرات باعتبار أن المتظاهرين من القلة المندسة.

هذا هو التفسير المنطقي والوحيد لما حدث ويحدث من غباوة شديدة من الشرطة ضد الشعب لكنه ليس مبررا لهذه الوحشية، لذلك أعتقد أننا لو وضعنا كل أشكال الغباء في كفة، والغباء الأمني في كفة وحده لرجحت كفة الغباء الأمني، وانكسر الميزان!

لكن الغريب أن الشرطة لم تكن تتعمد العنف طوال الوقت، بل إن الغباء هو الذي كان يدفعها إلى أن تستخدم عنفًا يفضحها، والدليل على ذلك "كليب القفا" الذي انتشر على "يوتيوب" قبل سقوط نظام مبارك بسنوات قليلة، فالشرطة كانت تتفنن في ضرب الناس على "قفاها" حتى إن هذا القفا كان سببًا في معركة بين عمنا محمود السعدني والمؤرخ جمال بدوي، فقد بدأت المعركة عندما كتب السعدني أن "ضابطا رقيعًا في سجن الفيوم قام بلزقي على قفايا"!

فرد عليه بدوي: تنكدت غاية النكد حين قرأت أن محمود السعدني تعرّض للصفع على قفاه، وهممت أن أكتب برقيات استنفار إلى نقابة الصحفيين واتحاد الكتاب وجمعيات حقوق الإنسان احتجاجًا على ما أصاب الزميل من إهانات لا تُغتفر لولا أنني تسمَّرت عندما وجدت الأستاذ يشيد بهذه الإهانات المزرية ويستحسنها ولا يجد أي غضاضة في اللزق على قفاه ويصف الضابط الذي ضربه على قفاه في معتقل الفيوم "بأنه رقيع وحليوة ورشيق ويتقصَّع في حديثه حبتين"

السعدني لم يصمت بل كتب تحت عنوان "القفا في خدمة الشعب" قائلا: لا أعرف من أين استنتج الأستاذ جمال بدوي أن العبد لله تلذذ بهذا اللزق على القفا، وأنني فخور به إلى الدرجة التي أباهي بها الآخرين، وأضاف: ألا ترى أن موقفك هذا تأخر كثيرًا، وكان أحرى بك وأنت الكاتب الحر أن تكتب هذه البرقيات، ونحن في السجن نُلزق على أقفيتنا، خصوصًا وأنت من جيل العبد لله.. فلماذا لم تكتب سطرًا واحدًا يا أستاذ جمال عن عمليات التعذيب؟! وعمومًا أرجوك يا أخ جمال عدم الاهتمام بقفا العبد لله، فقفا العبد لله حليم وقوي وتحمَّل كثيرًا وعلى استعداد لكي يتحمل أكثر إذا كان هذا يحقق السعادة والرخاء والطمأنينة لفقراء مصر!

الغريب أن الإفراط الغبي في تعذيب الناس وضربهم على "قفاهم" ليس حديثًا، وهنا يمكن أن نعود إلى كلمات الرَّحَّالة "بيرتون" الذي زار مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقال: "إن المرء في مصر إذا تعامل مع ضابط الشرطة أو دخل مركز شرطة لأي أمر؛ فلا بد أن يضربه الضابط أو المسؤول على (قفاه) حتى قبل أن تثبت عليه التهمة" ويذكر الرحالة في كتاباته أن جميع المتهمين المصريين كانوا يمرون أمام الضابط ليأخذ كلًّا منهم قَفَا، فإذا مرَّ أجنبي أحاله الضابط إلى قنصلية بلاده دون أن يضربه!

إذا كان هذا حالنا مع الشرطة التي كانت ترفع شعار "في خدمة الشعب" فما بالنا إن غابت وحلَّت مكانها الشرطة العسكرية التي تتسم طبيعتها بالحدَّة والغلظة والعنف والغَشَم؟!

كيف انتقل الشعب إلى خانة الأعداء؟

السلطة في مصر "فرد" و"فرض"!

فهي تتركز في يد "فرد" واحد يفعل ما يشاء دون حساب، ويجمع في يده كل السلطات، ويملك كل الصلاحيات، ويسير الأمور كيفما يشاء، وبمرور الوقت يصبح ما يعتقد أنه صحيح دستورًا، وما يرى أنه خطأ جريمة، وبالتالي يصبح "فرضا" على الجميع أن يتبعوه، ويشيدوا بحكمه، وحكمته، وإلا صاروا خارجين عن القانون.

فالغباء السياسي لا بد أن يعقبه غباء أمني، والحاكم الغبي يتعامل مع الأمن باعتباره الحل الأول، والأوحد، والأمثل، والأفضل لكل المشكلات التي يعجز عن إيجاد حل سياسي لها، وهنا يلعب الأمن دور البطولة في كل الأزمات باعتباره المنقذ والمخلص، وتسود لغته على الحوار، فيصبح المختلف متطرفًا، والمعارض خائنًا، والثوري عميلًا، والرافض بلطجيًا، والشعب كله متهمًا إلى أن يثبت العكس.

وهذه آفة حكم الفرد، أو بمعنى أدقّ آفة الحكم في مصر؛ فالسلطة عندنا شخص واحد لديه حل واحد هو الأمن، وهذا الحل لا يملك سوى أداة واحدة هي القمع، وبالتالي فلا بد أن يتحول هذا الشخص إلى طاغية أو

في أفضل الظروف يصير مستبدًا، وهناك فرق بين المستبد والطاغية[١]؛ فالمستبد من تفرَّد برأيه واستقلَّ به، لكنه قد يكون مُصلحًا يريد الخير ويأتيه، أما الطاغية فيستبد مسرفًا في المعاصي والظلم، وقد يلجأ في طغيانه إلى اتخاذ القوانين والشرائع سترًا يتستر به، فيتمكن ممَّا يطمح إليه من الجور، والظلم، والفتك برعيته، وهضم حقوقها، وقد يكيِّف فظائعه بقالب العدل فيكون أشَرَّ الطغاة وأشدَّهم بطشًا بمن تناولتهم سلطته، وقد اختصت الأمم والكتبة لقب طاغية بالملوك، ولم يطلقوه على كل من طغى.

وقد جرت العادة، عندما يموت الملك في فارس في العصور القديمة، أن يُترك الناس خمسة أيام بغير ملك، وبغير قانون بحيث يعم الاضطراب والفوضى جميع أنحاء البلاد، وكان الهدف من ذلك هو أنه بنهاية الأيام الخمسة يصل السلب والنهب والاغتصاب إلى أقصى مدى، ويشعر الناس بالخوف والفزع، وتعيش كل فئات الشعب في حالة شديدة من القلق والتوتر، ويعم الاكتئاب، ويسود شعور بعدم الأمان حتى يكون الناس على استعداد للموافقة على أي شخص يوفر لهم الأمن[٢] حتى لو كان ذلك على حساب حريتهم وكرامتهم، بل إنهم ينظرون إلى هذا الشخص باعتباره المنقذ حتى لو كان هو نفسه من صنع الفوضى ودبَّر لها وسهَّل ويسَّر ومَكَّن لحدوثها!

من هنا جاء الديكتاتور، وهو مصطلح روماني الأصل، ظهر لأول مرة في عصر الجمهورية الرومانية كمنصب لحاكم يرشحه أحد القنصليين بتزكية من مجلس الشيوخ، ويتمتع هذا الحاكم بسلطات استثنائية، وتخضع له الدولة، والقوات المسلحة بكاملها في أوقات الأزمات المدنية

---

[١] وفقا لتعريف دائرة معارف البستاني.

[٢] د.إمام عبد الفتاح إمام: "الطاغية"، ص ٥٤.

أو العسكرية، ولفترة محدودة لا تزيد عادة على ستة أشهر أو سنة على أكثر تقدير ولقد كان ذلك إجراءً دستوريًا، وإن كان يؤدي إلى وقف العمل بالدستور مؤقتًا في فترات الطوارئ البالغة الخطورة، وذلك المنصب يشبه لدينا الآن منصب "الحاكم العسكري العام" الذين يعيَّن في أوقات عصيبة تمر بها البلاد لاتخاذ إجراءات سريعة وحاسمة، ولفترة محدودة فقط.

وكان الدستور الروماني ينصُّ على أنه في أوقات الكوارث والأزمات تسلم كل السلطات في يد شخص واحد، وجرت العادة أن يكون قائدًا عسكريًا، فيصبح هذا القائد الديكتاتور هو القيِّم على الدولة في وقت الأزمة وتنتهي سلطاته الاستثنائية بانتهاء الأزمة، ويؤدي عندئذ الحساب عما قام به. و لم يكن الرومان يعتبرون ذلك الحكم سيِّئًا اللَّهم إلاً إذا خرج فيه صاحبه عن المهام الموكلة إليه، أو تجاوز حدود المدة الزمنية فاستمر في الانفراد بالحكم[١]!

وطبيعة الحكم المستبد تجعل الحاكم يقوم بتقسيم المجتمع إلى ثلاث خانات[٢]:

الخانة الأولى– الأصدقاء، وهؤلاء من المؤيدين الذين يُسنِد إليهم الوظائف العليا والقيادية، ويسمع لهم، وتتم الاستجابة لاقتراحاتهم التي تفيد الحاكم، وتشدد قبضته وتعزز من بقائه في السلطة.

الخانة الثانية– الأعداء، وهؤلاء من المعارضين الذين تحلُّ عليهم اللعنات وتتوجه إليهم اليد الباطشة للنظام لتفرض السيطرة الكاملة عليهم، سواء أكانوا خارج السجون أم حتى داخلها.

---

[١] إمام عبد الفتاح: "الطاغية"، ص ١٠٠

[٢] نسمة عبد العزيز: "إغراء السلطة المطلقة"، ص ٩٤

الخانة الثالثة– المتعايشون، وهؤلاء أغلب فئات الشعب، وتتكون من الذين لا ينتمون إلى فصيل سياسي بعينه أو إلى اتجاه فكري واضح ولا يهتمون إلا بالحياة العادية، ومتطلباتها من طعام وشراب وعمل ومسكن، وهؤلاء غالبًا لا يتذمرون بل هم قانعون بما هم فيه وراضون بكل ما يحدث فيهم ولهم، بل إنهم قد يدافعون عن الحاكم عندما يبطش بمعارضيه.

لكن السلطة الغبية في مصر تفننت في قهر البسطاء وإذلالهم حتى نقلتهم من مقاعد المتعايشين إلى خانة الأعداء، وقد حدث ذلك الانتقال بعد أن مارس النظام كل الحماقات، وارتكب كل الجرائم، و لم يعد السياسيون هم الأكثر عُرضة للعنف والتعذيب في أقسام الشرطة، بل زاحمهم المواطنون العاديون ثم تفوَّقوا عليهم؛ حتى إن الإحصاءات تفيد أن عدد المواطنين الذين تعرضوا للتعذيب في أقسام الشرطة في عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨، بلغ ٤٧ مواطنًا ليس بينهم تقريبًا أيُّ مواطن تم تعذيبه بسبب انتماء سياسي. الأدهى من ذلك أن حالات الاعتقال التي نالت أحكامًا بالإفراج و لم يتم تنفيذها كان أكثر من نصفها لجنائيين لا لسياسيين.

هنا كان لا بد أن ينتقل الشعب بكل طوائفه إلى خانة الأعداء، فكل المنافذ قد سُدت في وجه المتعايشين الذين يرددون شعار "من رضي بقليله عاش" فحتى القليل الذي رضوا به لم يعد موجودًا لديهم، بعد سنوات طويلة من الوعود الكاذبة، والدعايات المضللة، وفي ظل فساد يجرِّف تربة المجتمع وينقله من كارثة إلى أخرى، وفي خضمِّ حالة من التدهور الأخلاقي والثقافي والتعليمي ومع غياب العدالة في توزيع الدخول وزيادة معدلات الفقر، هنا اكتشف النظام السياسي الحاكم أن الرفض الحقيقي له يأتي من الخانة الثالثة التي كانت متعايشة، والتي أنهكها تصديق الوعود الزائفة، لكنها لم تعد تحتمل مزيدا من الإهانة.

النظم الغبية وحدها هي التي تستفز المتعايشين وتنقلهم إلى خانة الأعداء، فالنُّظم المستبدة رغم طغيانها فإنها تحاول أن تُحيِّد البسطاء ولا تستفزهم، بل إنها تلعب على مشاعرهم، وتسعى لاستمالتهم كي تستفيد منهم في أوقات الأزمات، وتحرص على تحقيق بعض المصالح الصغيرة للمتعايشين حتى تضمن ولاءهم وتَأمَن تقلُّبَهم.

التَّحليلُ النَّفسيُّ للغبيِّ سياسيًّا

إذا كان كرسيّ الحكم له بريقه، فإنه عندنا له غباوءه!

إنه واحد من أمراض المهنة، وربما من متطلباتها أحيانًا، فالحاكم –غالبًا– إما أن يكون غبيًّا أو متغابيًا أو الاثنين معًا!

فالحاكم الغبي سياسيًّا دائمًا ما يخطئ في تقدير الأمور، وتكون ردود أفعاله لا تتناسب مع الأفعال نفسها، إما بالتضخيم وإما بالتجاهل، فهو يتسم بقدرات عقلية ضعيفة لا تتناسب مع المكانة التي وصل إليها والمكان الذي يجلس فيه، فكرسيّ الحكم يتطلب قدرات خاصة ومهارات استثنائية، وسمات نفسية معينة.

لكن الغباء السياسي لا يعني الغباء العقلي، فأيُّ شعب في الدنيا "٦٠٪" من أفراده متوسِّطو الذكاء، و"٢٠٪" يتمتعون بمستوى ذكاء أقل من المتوسط، وأخيرًا هناك ٢٪" هم المتميزون وذكاؤهم فوق المتوسط. والغبي سياسيًّا غالبًا ما يكون من متوسطي الذكاء، أي أن نسبة ذكائه تتراوح ما بين ٩٠ و ١١ درجة، وهذا ليس عيبًا ما دام هو في مكان يتناسب مع قدراته، لكنه يصبح كارثة إذا تم وضعه في مكان يفوق قدراته أو يتطلب قدرات أخرى لا تتوافر لديه، فالرئاسة تتطلب شخصية مبدعة

لديها الخيال، والكاريزما، والطموح، وبالتالي لا يتناسب معها الحاكم الذي تدفعه الصدفة وحدها إلى كرسيّ الحكم. أما الحاكم المتغابي فهو غالبًا وصل إلى كرسيّ الحكم متخفيًّا في صورة الغبي، وبالتالي فقد جَنى ثمار هذه الطريقة، ويرى أنها الأفضل، والأنسب في التعامل مع من حوله حتى يأمن مكرهم ويكشف نياتهم، ولا تظهر صورته الحقيقة إلا في المواقف الفارقة التي يقرر فيها مباغتة المتربصين به، والرد عليهم.

هذا النوع من الحكام غالبًا ما يكون حادَّ الذكاء، لأنه يعرف متى يكون غبيا، ومتى يُظهِر ذكاءه، ولا يأمن لأحد بسهولة ولا تعرف بدقة ما يدور في رأسه، لكنه يسقط حين يتسلل إلى قلبه وعقله الإعجاب الشديد بالذات، وقتها يسهل على أعدائه اصطياده.

أما الغبي المتغابي فهو غالبًا ما يكون من محدودي القدرات، لكنه يبالغ في إظهار غبائه حتى يطمع فيه من حوله، لكن مشكلته الرئيسية أنه عندما يكون من حوله أذكياء يدركون واقعه، لكنهم يبالغون في إظهار اندهاشهم من ذكائه، ويبدون دائمًا إعجابًا شديدًا بطريقة تفكيره ورؤيته، ويعتبرون بطأه حكمة، وتأخره عقلانية، وعدم تقديره للأمور ضبطَ نفس.

الدكتور محمد المهدي أستاذ الطب النفسي، يحدد عشرة من أمراض السلطة التي يُعتبَر الغباء السياسي سببًا في حدوثها أو نتيجة لها:

١- الهاجس الأمني:

كل سلطة يشغلها الجانب الأمني، لكنه يزداد إلى أقصى درجاته لدى السلطة غير المنطقية ولدى السلطة الفرعونية، والسبب في ذلك هو أن السلطة تشعر أنها اغتصبت شيئًا مهمًّا من الجماهير لذلك فهي تتوجس خيفة من هذه الجماهير ولا تصدق مظاهر ولائها لأنها تعلم يقينًا أنها مظاهر

كاذبة، وأن الجماهير تتمنى اللحظة التي تزول فيها السلطة سواء بأيديها أو بأيدي القدر، ولذلك تأخذ السلطة احتياطات أمنية كثيرة، ومبالغًا فيها تتناسب مع قدر خوفها من الجماهير وعدم ثقتها بها أو احتقارها لها. وكلما ازدادت الطبيعة البارانوية (الشك وسوء الظن والتعالي) لدى رمز أو رموز السلطة، كلما تضخم الهاجس الأمني وتسرطنت وسائل التجسس والقمع.

٢- العُزلة وافتقاد الحياة الطبيعية:

صاحب السلطة في هذه الحالة يعيش حياة تحوطها المحاذير والقيود، فعلى الرغم من تمتعه بسلطات واسعة تبهر من يراه من بعيد فإنه محاط بآلاف المحاذير، فهو غير قادر أن يعيش حياة تلقائية عفوية مثل بقية الناس وغير قادر على التجول في الشوارع وارتياد المحلات والشواطئ والمتنزهات العامة، وكل تعاملاته مع الناس تحدث من وراء ستار لذلك فهي تعاملات غير صادقة وغير أصيلة وغير حقيقية، فكل المحيطين به يظهِرون له الولاء والطاعة ليس بدافع من حب حقيقي وإنما بدافع من خوف حقيقي من سطوته، فهو محروم من المشاعر الطبيعية التي يتعامل بها البشر بعضهم مع بعض، لذلك فالاستمرار في السلطة لفترات طويلة يؤثر بالسلب في شخصية صاحب السلطة حيث يبعده عن حقيقة الحياة، وطبيعتها وعن حقيقة الناس ومشاعرهم، ويفرض عليه وجودًا كاذبًا خادعًا فهو لا يرى الحياة إلا من خلال تقارير تعكس وجهة نظر من كتبوها، ولا يرى من الناس إلا أقنعة لبسوها رَغَبًا ورَهَبًا، ولا يبقى له من معرفة الحياة الحقيقية إلا ذكرياته عنها قبل أن يجلس على كرسيّ السلطة، وكلما تقادم به العهد في السلطة خفتت هذه الذكريات فلا يبقى بينه وبين الحياة الحقيقية أي ارتباط.

٣- تضخم الذات:

يسعى لامتلاك السلطة والتشبُّث بها نوعان من الشخصيات هما: الشخصية البارانوية والشخصية النرجسية وكلتاهما لديها مشكلة مع ذاتها، فالشخص البارانويي يشعر بالدُّونية وباحتقار الآخرين له ومحاولاتهم اضطهاده وسحقه وتدميره (هكذا يعتقد) لذلك فهو لا يثق بأحد، ويتوقع السوء من أقرب الناس إليه، ويشعر في بدايات حياته بالظلم والاضطهاد، وينظر إلى الناس بعين الشك ويسيء الظن بهم ويتوقع منهم الإيذاء والتآمر ضده، ويفسر أقوالهم وأفعالهم على محمل سيئ ويأخذ حذره منهم ويبالغ في ذلك، ونراه مفتوح العينين مستنفَر القوى طوال الوقت لأنه يتصور أن الخطر يحوطه من كل مكان، لذلك يسعى لامتلاك أدوات القوة ويسعى بكل ما يملك نحو السلطة عساها تحميه من غدر الناس وتعطيه القوة والسيطرة والاستعلاء على هؤلاء الأوغاد المتآمرين (الناس – كل الناس).

أما الشخص النرجسي فهو يشعر شعورًا مبالغًا فيه بذاته، ويتصور أنه متفرد وأنه شيء خاص جدًّا، وأنه محور الكون، وأن لديه ملكات لا يملكها غيره، وأنه جدير بكل الحب والاحترام والتقدير. لذلك يحاول أن يضع نفسه حيث يراها فنراه يهتم بصحته ومظهره وشياكته بشكل واضح ويبذل جهدًا كبيرًا للوصول إلى مستوى النجومية والتألق، فلديه ذات متضخمة من البداية ويشعر أن الجماهير التي يحكمها محظوظة بحكمه إياها، وكلما اتسعت سلطته طولًا وعرضًا وزمنًا كلما تضخمت ذاته أكثر وأكثر حتى يصعب عليه في مرحلة من المراحل أن يرى بجواره أحدًا فهو الملهَم والعظيم والقادر والحكيم، وتتعقد الأمور حين يعمل مَن حوله من المتزلِّفين والمنتفعين على النفخ في هذه الذات لتتضخم أكثر وأكثر حتى

تمحو ما حولها ويشعر صاحب السلطة بامتلاكه كل شيء وبتوحد الوطن مع ذاته، وهذه هي نقطة اللا عودة التي يصعب عليه عندها ترك السلطة طواعية لأنه ابتلع الوطن في ذاته المتضخمة.

وفي الحالتين نلاحظ حالة من التَّوحُّد بين ذات صاحب السلطة وبين الوطن على اختلاف دوافع التَّوحُّد ومبرراته، وهذا موقف في غاية الخطورة؛ لأنه يضع الجميع في ورطة فقد أصبح الوطن في هذه الحالة رهينة في شخصية الحاكم، وتصبح عملية الفصل غاية في الخطورة (مثل عملية فصل التوأمين المتصلين) لأنها تحمل في طياتها احتمالات تدميرية ربما تودي بالحاكم والوطن أو تكبدهما خسائر فادحة تستمر لسنوات طويلة.

٤- إدمان السلطة:

يحدث الإدمان نتيجة الشعور بعائد التعاطي من نشوة وانبساط ويحدث أيضًا نتيجة ارتباطات شرطية تثبت السلوك الإدماني وتدعمه، ولا شك أن السلطة تعطي نشوة ويحدث معها ارتباطات شرطية مدعمة وذلك بما تعطيه لصاحبها من مكانة وتميُّز، وما تضفي عليه من هالة، وما تهيئه له ولأسرته من هيبة، وما تتيح له من خضوع الناس واستعدادهم لخدمته والتفاني في تلبية ما يريد. هذا الوضع حين يستمر طويلًا يؤدي إلى حالة من إدمان السلطة.

٥- العنـــاد:

وهو شعور مركَّب يتكون من الغرور والكبر واحتقار الآخرين والرغبة في السيطرة المطلقة واغتصاب إرادة الآخرين بحجة أن الشخص المعاند هو الأعلم والأحكم والأقدر، وأن الآخرين جهلاء وقُصَّر، وأما العناد

فيحمل قدرًا كبيرًا من العدوان لأنه يبعث برسالة إلى الرعية بأنها ليست ذات وزن حتى يستجيب لها صاحب السلطة، وبأنه ليس في حاجة إلى إرضائها أو استرضائها فهو متحكم فيها بقوته وسطوته وليس برضاها أو قبولها.

٦- التَّألُّه:

وهو قمة تضخم الذات لدى صاحب السلطة إلى الدرجة التي لا يستطيع معها رؤية أي ذات أخرى بما فيها الذات الإلهية، وقد أعلنها فرعون صراحة حين قال "ما علمت لكم من إله غيري"، وقد يعلنها أصحاب سلطة آخرون بأشكال ولغات مختلفة تتفاوت درجتها حسب حالة تضخم الذات التي وصلوا إليها وانكماش ذوات الجماهير التي تحتهم. والتَّألُّه يؤدي إلى التَّجبُّر والاستعلاء والطغيان والاستبداد بلا حدود، والمتألِّه لا يكسره شيء إلا الموت يخطفه وهو في قمة انتفاخه وزهوه.

٧- الجمود:

وهو سمة للنظام الذي يفتقد الأمان فيلجأ إلى تثبيت الأوضاع وتجميدها لأن الحركة عنده تعني تهديد الاستقرار، وشعار هذا النظام " استقرار الاستمرار، واستمرار الاستقرار

٨- الإفلاس:

ويحدث حين تطول مدة الحكم، حيث تسري حالة من الملل والفتور فى حياة السلطة وصاحبها نتيجة للروتين والتكرار الطويل الممل، وقد يحاول صاحب السلطة إيهام الآخرين بأن ثمة تجديدًا يطرحه من وقت إلى

آخر من خلال بعض الإجراءات الهامشية السطحية، أو بعض الإعلانات التي توحي أو تَعد من وقت إلى آخر ببداية مرحلة جديدة أو تبنّي فكر جديد، ولكن يكتشف الجميع بعد وقت قصير أن الأمور كما هي، وأنه لم يعد هناك غير الفتور والملل.

٩- الشيخوخة:

قد تشيخ السلطة فتصبح غير قادرة على استيعاب منظومات الحياة الحديثة أو تصبح غير قادرة على مواكبة الأحداث كما ينبغي، لذلك تتمسك بالأنماط القديمة والشعارات القديمة، وتصبح حركتها بطيئة وبليدة واستجاباتها باهتة شاحبة، ولا تستطيع مواكبة حركة الزمن أو التفاعل مع احتياجات الجماهير المتجددة، وتسعى إلى تكبيل حركة المجتمع وضبط إيقاعه بما يتناسب مع الإيقاع البطيء لصاحب السلطة.

١٠- عبادة الأبناء:

حين يكتشف صاحب السلطة أن أبديَّته مستحيلة يلجأ مباشرة إلى السعي نحو الأبدية عن طريق توريث الأبناء الذين هم امتداد طبيعي لذاته التي عاش يعبدها ويسخِّر كل شيء من أجلها، لذلك يتشبث بتوريث أحد الأبناء الذين يصبحون بالنسبة إليه حبل نجاة من الفناء والانتهاء، ولذلك يعبدهم كامتداد لعبادته لذاته ويضحِّي في سبيلهم بمصالح الوطن والرعية.

للسلطة أمراض كثيرة لكن أكثر مرض عانت منه مصر ودفع الشعب ثمنه بطول تاريخها وعرضه هو الغباء السياسي فهو حاصل جمْع كل أمراض السلطة في كل زمان وفي كل مكان، فهو مرض تجده لدى "المستبد" و"الطاغية" و"المعزول" و"المغرور و"مدمن السلطة" و"العنيد"!

الفصل الرابع

استثمار الغباء

"بالغباء وحده يمكن أن يصنع الكوميديان
مجدَه بشرط أن يجد النظام السياسي فيه
ضالته ويحسِن استغلاله".

جُحَا طلع ذكي!

حماقة جُحَا هي تراثه!

فلا يجوز الحديث عن الأغبياء والمتغابين دون الحديث عنه، فهو محفور داخل وجدان المصريين باعتباره إمام الأغبياء، وسيد المتغابين، فلا يمكن أن تجد مصريًّا لا يعرف جُحَا و لم يسمع عن نوادره، بل إن أغلبنا يعتبره أسطورة من الأساطير التي صارت حقيقة بمرور الزمن، لكنه لم يكن حقيقة مطلقة ولا مجرد أسطورة واهية.

إنه يجلس وحده في المساحة الواقعة بين الحقيقة والخيال، رغم أن الحقيقة الوحيدة الثابتة في قصة جُحَا أنه شخصية حقيقة، لكنه ليس شخصًا واحدًا!

النوادر التي تُنسَب إلى جُحَا لا يمكن أن تصدر من شخص واحد، لأن بعضها يتحدث عن أناس في صدر الإسلام، وبعضها يتحدث عن شخصيات في عصر المنصور العباسي أو عصر تيمور لنك أو ما بعده من العصور بأجيال، علاوة على أنه يستحيل أن تصدر هذه النوادر عن شخصية واحدة لتباعد البيئات التي تروي عنها سواء في الأمكنة أو العادات والأخلاق، فقد يروى بعضها عن فارس، ويروي بعضهم عن

بغداد أو الحجاز أو آسيا الصغرى أو غيرها من البلدان الشرقية [١].

وقد اختلف الرواة والمؤرخون في شخصية جُحَا، صوره البعض مجنونا أو غبيا، بينما رأى البعض الآخر أنه رجل بكامل عقله ووعيه لكنه يدّعي الغفلة ليستطيع السخرية من الحكام بحرية تامة، ويدلل أصحاب هذا الرأي بما فعله مع ملوك وأمراء عصره، ومنه ما فعله مع أبي مسلم الخراساني صاحب الدولة الذي بمجرد أن حضر إلى الكوفة طلب مقابلة جُحَا، عسى أن يظفر منه بطُرفة أو فكاهة في خضمٍ حروبه الدموية، وقال أبو مسلم لمن حوله: أيُّكم يعرف جُحَا فيدعوه إليَّ؟ فقال يقطين: أنا، وبالفعل ذهب إليه وأحضره، لكن جُحَا خشي على نفسه، وادَّعى الحُمق والجنون، ولما دخل المجلس لم يكن فيه غير أبي مسلم ويقطين.. فقال جحا: يا يقطين، أيُّكما أبو مسلم؟!

وعلى الرغم من ذلك فقد أُعجب به أبو مسلم، وحدَّث عنه الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، الذي بادر فاستدعاه إلى دار الخلافة في بغداد لعله يَصلُح نديمًا أو مهرِّجًا في بلاطه، وقد أدرك جُحَا عاقبة مثل هذا الدور وهامشيته ومخاطره وقيوده، فما هو بمهرج وما ينبغي له أن يكون كذلك، فتمادى في ادِّعائه الحُمق والجنون حتى أفرج عنه المنصور بعد أن أجزل له العطاء، وكان لمثل هذا اللقاء أثره البالغ أيضًا في ازدياد شهرته، وطلب الناس له في مجالسهم، والإغداق عليه، وهم سعداء به وبنوادره، وبرؤيته الساخرة للحياة والأحياء جميعًا، وهنا قال جُحَا قولته الساخرة المشهورة: "حُمْق يعولُني خيرٌ من عقلٍ أعولُه"

نوادر جُحَا مع الحكام كثيرة وتعتبر بمثابة تأريخ للفترة التي عاشها وللحكام الذين عرفهم ومنها أنه يقول:

---

[١] عباس محمود العقاد: "جُحَا الضاحك المضحك"، ص٨٥.

(كنت جالسًا يومًا في مجلس أحد الحكام فقال لي "إني أريد أن أكافئك على ذكائك" فقلت له "أرجو أن تأمر بأن آخذ حمارًا من كل رجل يخشى زوجته"، فوافقني على طلبي. وبعد مُضي عدة أيام مررت به وأنا أسوق قطيعًا من الحمير فاستوقفني وقال لي "من أين لك هذا يا جُحَا؟"، فقلت له "لقد أخذت كل هذه الحمير من رجال يخشون نساءهم في أنحاء البلاد، وكان أعجب ما رأيت في رحلتي هذه امرأة لم أر مثل جمالها في حياتي"، ففوجئت به يقول "اخفض صوتك يا جُحَا فإن زوجتي بالقرب منّا وأخشى أن تسمعنا فيحدث ما لا يُحمد عقباه"، فعجبت من هذا الحاكم الجبان، فقلت له "إذا كنت آخذ حمارًا من كل إنسان يخشى زوجته فيجب أن آخذ كل حميرك"!

كان جُحَا يتحدث مع الحكام وعنهم باعتبارهم نظراءه، فيقول عن أحدهم: كان صديقي الحاكم يشكو من تدخُّل زوجته الدائم في شؤونه فأخذت أبصِّره بأن الرجل الذي يطيع زوجته رجل ضعيف، وبعد فترة دعاني الحاكم لأقضي وزوجتي عدة أيام في قصره فأرسلتْ زوجة الحاكم إلى زوجتي، وقضت معها بعض الوقت. وفي مساء ذلك اليوم جلست أتسامر أنا وزوجتي فقالت لي "ألا ترى هذه البردعة الموضوعة إلى جانب الجدار؟"، فقلت "بلى"، فقالت "هاتها نلعب بها"، فأحضرتُها فطلبتْ أن أضعها على ظهري، ثم قالت لي "دعني أركبْ على ظهرك"، فأخذت أجري في الحجرة وأنا أحملها على ظهري، وفجأة وجدت الحاكم وزوجته يضحكان من هذا المنظر الغريب فأدركت أن هناك مؤامرة دبَّرتها زوجة الحاكم بالاتفاق مع زوجتي فقال لي الحاكم "ما هذا يا جحا؟ أتنصحني وأنت أحوج إلى نصيحتك؟"، فقلت له محاولًا أن أردَّ هذه المؤامرة "الحمد لله لقد رأيت بنفسك ما أصابني بسبب مطاوعتي

لامرأتي فلا تطع زوجتك أبدًا" فضحك الحاكم وباءت محاولة زوجته بالخيبة والفشل).

جحا هنا كان يسبق زمنه فهو يشير إلى مصير الحاكم الذى يسمع كلام زوجته، ويسير وفقا لأهوائها، لكن نقد جُحَا لم يكن موجَّهًا إلى حكام عصره فقط، بل إلى كل المسؤولين من أصحاب المناصب الرفيعة. ومنه ما يروي عما حدث له مع أحد القضاة بقوله:(كنت ماشيًا في السوق يومًا فجاء رجل من خلفي وضربني على قفاي، فالتفتُّ إليه غاضبًا، وقلت له "ما هذا أيها الرجل"، فقال "لا تؤاخذني يا سيدي فقد ظننتك صديقًا لي اعتدت مداعبته بمثل ذلك"، ولكني أصررت على أن لا أتركه وذهبنا إلى القاضي، وعندما ذهبنا عرفت أن هذا الرجل من أصدقاء القاضي فلما سمع حكايتنا حكم بأن يدفع الرجل لي عشرة دراهم جزاء صفعي فاغتظت من هذا الحكم الظالم. فلما حان وقت الدفع اعتذر الرجل للقاضي بأنه ليس معه مال فأمره أن يذهب إلى البيت ليحضرها، فلما مضت مدة طويلة و لم يعد الرجل أدركت أن القاضي قد مكَّن الرجل من الهرب وبينما كان القاضي مشغولًا ببعض القضايا اقتربت منه وصفعته على قفاه فالتفتَ مذعورًا وقال "ما هذا يا جحا؟" فقلت له "لقد صفعني صاحبك صفعة كهذه وقد حكمتَ عليه بعشرة دراهم، ولكنه أبطأ وأنا مضطرٌّ إلى الانصراف الآن، فإذا جاء فخذ أنت الدراهم"!).

ذكاء جُحَا في غبائه!

فقد كان يدرك أن رقبته ستطير إذا صارح الحكام، ففضل أن يعيش متغابيًا على أن يموت ذكيًّا، لكن المدهش أن هناك روايات تؤكد أن جُحَا

كان واحدًا من التابعين، فيقول عنه الشيرازي: "جُحا لقب له، وكان ظريفًا، والذي يُقال فيه مكذوب عليه"

ويتفق معه الحافظ ابن عساكر، إذ يقول: جُحَا عاش أكثر من مائة سنة، وكان من التابعين، وكانت أمه خادمة لأنس بن مالك، وكان الغالب عليه السماحة، وصفاء السريرة، فلا ينبغي لأحد أن يسخر به.

الغريب أن سيرة جُحَا كانت حاضرة في أغلب كتب السير التي تتحدث عن التابعين فقد جاء ذكره في كتب جلال الدين السيوطي، والذهبي، والحافظ ابن الجوزي الذي قال: ومنهم (جُحا) ويُكنَّى أبا الغصن، وقد رُوي عنه ما يدل على فطنة وذكاء، إلا أن الغالب عليه التّغفيل، وقد قيل إنّ بعض من كان يعاديه وضع له حكايات"

إذن.. نحن أمام شخصية حقيقية ويمكن أن تكون من التابعين!

لكن رغم كل ما كُتب عن جُحَا في سير التابعين فإن ما قيل عن حماقته كان أكثر وأشهر وأبقى، فقد قيل إن جُحَا توضأ ولم يكفه الماء لإتمام وضوئه، وبقيت رجله اليسرى بغير وضوء، فقام يصلِّي برجله اليمنى ولا يضع اليسرى على الأرض، فسألوه: ما بالك تقف على رجل واحدة؟، قال: الأخرى غير متوضئة!

ومثلما اختلف المؤرخون حول شخصية جُحَا اختلفوا أيضًا حول اسمه ونسبه، فقال بعضهم إنه أبو الغصن دُجين الفزاري، وقد عاصر الدولة الأموية، بينما قال البعض الآخر إنه الشيخ نصر الدين خوجه الرومي الذي عاش في قونية معاصرًا الحكم المغولي لبلاد الأناضول ومعظم القصص المعروفة في الأدب العالمي تُنسَب إليه.

والواضح أنه على الأقل كان لدينا اثنان يُطلَق عليهما اسم جُحَا

أحدهما عربي والآخر تركي، وربما كان لكل أهل بلد جُحَا الذي يعرفونه، لكن لولا نوادره ما عاش بيننا وترسخ في وجداننا على مدار هذه القرون الطويلة.

فقد سألوا جُحَا أيهما أنفع: الشمس أم القمر؟ فلم يتمهل وأجابهم بيقين: "إنه القمر ولا مراء"

فسألوه: و لِمَ؟

فقال: لأن الشمس تطلع في النهار حين يستغني عنها الناس، وأما القمر فلا يطلع إلا في الظلام على حين الحاجة إليه.

وقيل أيضًا إن الطحان رأى جُحَا وهو يأخذ من قُفف الناس ويضع في قُفَّته فصاح به: "ما هذا يا جحا؟"

قال جحا: "لا تؤاخذني فإنني رجل أحمق"

- قال الطحان: "لو كنت أحمق لأخذت من قُفَّتك ووضعت في قُفَف الناس

- قال جحا: "ويحك! أنا أحمق واحد، ولو صنعت كما تقول لكنت أحمقين"!

رحم الله جُحَا كان يُضحك الناس لكنه لم يضحك عليهم، رغم اقترابه من سلاطين عصره!

إسماعيل ياسين في بيت عبد الناصر

كان الرئيس عبد الناصر يخصص يوم الجمعة لمشاهدة أفلام إسماعيل ياسين، وكانت هناك مجموعة من العاملين في التليفزيون اختصهم الدكتور عبد القادر حاتم –وزير الثقافة والإرشاد آنذاك– لتجهيز فيلم إسماعيل ياسين، وكان يتكون من أكثر من ١٥ علبة تحملها مجموعة من التليفزيون إلى بيت الزعيم عبد الناصر بمنشية البكري ليلة الخميس أو في صباح الجمعة [١].

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان!

كان الرئيس يريد مشاهدة فيلم "إسماعيل ياسين في الجيش ووجد مسؤولو التليفزيون أن هناك علبتين مختفيتين، وانقلبت الدنيا بحثًا عنهما لإرسال الفيلم كاملًا إلى عبد الناصر، وأعلنت الراحلة همت مصطفي الطوارئ في التليفزيون بحثًا عن العلبتين الضائعتين –حيث كانت تشغل منصب رئيس القناة الأولى– حتى وجدتهما، وأرسلت العلب كاملة إلى بيت الرئيس[٢].

---

[١] صلاح البيطار: "إسماعيل ياسين في بيت عبد الناصر"، مجلة الكواكب، ٢١ مارس ٢

[٢] نفس المرجع.

تلك الواقعة جعلت كل من يعمل في التليفزيون يعرف إعجاب وولع عبد الناصر بأفلام إسماعيل ياسين، لكن الحقيقة أنها كشفت عن أهمية إسماعيل ياسين في نظام عبد الناصر، فقد كان "سُمْعَة" هو كوميديان النظام الذي قدَّم ستة أفلام حاولت فيها الدولة استغلال نجاحه في دفع الشباب إلى التطوع في أسلحة الجيش المختلفة، بل إنها أسهمت في إنتاج هذه الأفلام والترويج لها لدرجة أن الرئيس عبد الناصر حضر بنفسه حفل افتتاح فيلم "إسماعيل ياسين في الجيش" سنة ١٩٥٥، أي بعد عام واحد فقط من رئاسته.

كان عبد الناصر يحرص على مشاهدة واحد من أفلام إسماعيل ياسين كل يوم جمعة مهما كانت الظروف السياسية أو المتغيرات العالمية، لكن الحقيقة أن جمال عبد الناصر لم يكن يهتم بإسماعيل ياسين لولا أنه وجد فيه ما يحقق أهدافه، وقد كانت هذه الأهداف نبيلة ووطنية وذكية حتى وإن استخدمت صورة الغبي للوصول إلى الناس!

فالأفلام الستة التي قام بها "سُمْعَة" كانت فكرتها واحدة سواء كانت تدور أحداثها في الجيش أو الطيران أو الأسطول أو البوليس الحربي أو البوليس السري أو البوليس، فقد كان البطل دائمًا شابًّا يتَّسم بالسذاجة المفرطة، لكن بعد نجاحه في سلاحه ومهمته المكلَّف بها يصبح ذكيًّا وفاعلًا في مجتمعه ووطنه.

صورة الغبي كانت حاضرة دائمًا في أفلام إسماعيل ياسين، بل إنه صنع أسطورته من تلك الصورة التي أحسن النظام السياسي استغلالها ووجد فيها ضالته، فقد كان يريد صناعة صورة ذهنية مختلفة للجيش، والشرطة بعد ثورة يوليو، حتى يشعر ملايين المصريين بنتائج الثورة وبأهمية التطوع فيهما، وعدم التخلف عن الخدمة الوطنية، وقد نجح

النظام في تحقيق ما يريد، فتعلق الناس بأفلام إسماعيل ياسين وصارت من أكثر الأفلام قربًا إلى الجمهور، بل إنها عاشت بأكثر ممَّا قُدِّر لها، وظل الأطفال بل والكبار أيضا يحرصون على مشاهدتها دون أن يفكر أحد في الهدف الذي تم عمل هذه الأفلام من أجله.

فأنا واحد من جيل أحب إسماعيل ياسين وأفلامه، ولم يكن يدرك حقيقة مغزاها إلا مؤخَّرًا لكنه ظل متعلقًا بها ويضحك كلما رآها رغم أنه يحفظ مشاهدها عن ظهر قلب، لكن مشكلة إسماعيل ياسين أنه لم يطوِّر من نفسه ولم يحاول إتقان ما يقوم به، ولم يفكر في ما يعمل، فقد ترك نفسه طوال الوقت أسيرًا للصدفة، وكان يؤمنٍ بنظرية "الجمهور المغفَّل على حد تعبير عمنا محمود السعدني الذي لخص حياة إسماعيل ياسين بقوله: بدأ إسماعيل ياسين رحلة حياته العجيبة، لم يكن يحلم بأكثر من أن يكون منولوجستًا يُضحك المعازيم في الأفراح والليالي الملاح، لكنه بالصدفة صار أشهر منولوجست في مصر، وصارت له مدرسة وأصبح له أتباع، ثم بالصدفة أيضًا دخل السينما وصار بين الممثلين! ثم بالصدفة أيضًا أصبح بطلًا، ثم أصبح البطل الوحيد للسينما المصرية على مدى خمسة عشر عامًا، واستطاع أن يفرض اسمه على شباك التذاكر وعلى الموزعين، ثم صار بعد ذلك هو اسم الفيلم. إسماعيل ياسين أولًا، ثم يبدأ البحث عن اسم الفيلم.. إسماعيل ياسين في البحر، إسماعيل ياسين في البر، إسماعيل ياسين في الأرض.. ليس مهمًّا أين يوجد أو أين يستقر، ولكن المهم إسماعيل ياسين في الأول، ثم بعد ذلك فليكن ما يكون! ثم فجأة تدحرج إسماعيل ياسين من القمة إلى النسيان، وكان السقوط رهيبًا وخاطفًا، تمامًا كما يحمل بعض الناس فردًا على الأعناق إلى قمة جبل، ثم يقذفون به فجأة إلى الهاوية.. لا مسرح ولا سينما ولا حتى مسلسلات الإذاعة والتليفزيون!

ما قاله عمنا السعدني في عام ١٩٦٧ يكشف ما حدث لإسماعيل ياسين في سنواته الأخيرة، وكأنه هوى مع النظام، فقد تدهورت حالته المادية، وانحسرت شهرته، و لم يجد أمامه سوى أن يذهب لمقابلة الرئيس، وبالفعل قابله، وقال له عبد الناصر: "اذهب إلى الدكتور حاتم وقل له الريس بيقولك شغلني في التليفزيون" وأصدر الدكتور حاتم تعليماته لتأليف وإنتاج حلقات تليفزيونية بطولة إسماعيل ياسين، وأيُّ عمل فنى يناسب حياته وعمره آنذاك فكانت حلقات "مركوب أبو القاسم"، التي كانت بمثابة تكريم من النظام لواحد من أبنائه الذين عملوا لخدمته في فترة من الفترات، وقد أعطى التليفزيون أجرًا خاصًا لإسماعيل ياسين يعينه على مواجهة الحياة التي ضاقت عليه.

إسماعيل ياسين دفع الثمن، فالاعتماد على أدوار الغباء له حدود، وأصول، وتاريخ صلاحية، فالكوميديان يختلف عن أي فنان آخر فهو يمكن أن يصعد إلى سماء النجومية كالبرق، لكنه قد يسقط في لمح البصر حين تشيخ "إفيهاته"، وينصرف الناس عنه إلى كوميديان آخر، لذلك يعيش المُضحك في صراع مع الزمن حتى لا يتجاوزه، فما يُضحك الناس اليوم ليس شرطًا أن يُضحكهم غدًا، وهذه آفة الكوميديا.

النظام السياسي كان ذكيًا حين استغل صورة الغبي لتمرير أفكاره عن طريق واحد من أشهر المضحكين في تاريخ السينما، بل إن عبد الناصر شخصيًا كان يعرف قدر إسماعيل ياسين لدرجة أنه كلّفه بلقاء المشير السلال رئيس اليمن، الذي كان يُعالَج في مستشفى "المواساة" وبالفعل ذهب "سُمعة" إليه أكثر من مرة، ثم اتخذ قرارًا بعد أكثر من زيارة بعدم الذهاب مجددًا نظرًا لمشقة سفره إلى الإسكندرية حيث يعالَج المشير السلال هناك بينما كان إسماعيل ياسين يعرض إحدى مسرحياته في القاهرة.

لكنه تراجع بعد أن جاءه أحد الضباط ناقلا له رسالة من عبد الناصر وقبل أن يكمل جملته "الرئيس يرجو أن.. رد عليه "الرئيس يرجوني.. الرئيس يا خبر أسود.. أنا أروح عريان ملط يا راجل"، وذهب إسماعيل ياسين من جديد للقاء المشير حتى تم شفاؤه فشكره وأكد له أنه كان سببًا في شفائه ولولاه لكانت حياته كئيبة، وربما حياة كل المصريين حتى إنه قال لعبد الناصر: "إنه من فضل الله أنه وجد إسماعيل ياسين"[١].

لكن إسماعيل ياسين لم يعمل حسابا لشيء، كأنه كوكب يجري في فلك معلوم، مثلما يقول عمنا السعدني، الذي يصف ما كان يحدث بين الثنائي الإبياري و"سُمعة" بقوله: كان أبو السعود الإبياري يكتب وإسماعيل ياسين يقوم بالتشخيص، وكان مسرح إسماعيل ياسين هو المسرح الوحيد في العالم القادر على تقديم رواية جديدة كل أسبوع، وإذا كان عرض الرواية يستغرق ثلاث ساعات فالمؤلف أبو السعود الإبياري قادر على تأليف الروايات في ثلاث ساعات أيضًا، وهو لا يحتاج إلى أكثر من مائة ورقة فلوسكاب وتدخين أربع شيش ودمتم والسلام! ولا شيء يهم إذا كانت الرواية الجديدة فيها نفس حوادث الرواية القديمة! ولا يهم إذا كان إسماعيل ياسين يردد نفس النكت التي رددها من قبل، إذ كان الجمهور مغفَّلًا ورواد المسرح أغبياء.

[١] أنيس منصور: "الكبار يضحكون أيضًا"

الجمهور المغفَّل عايز كده!

بالغباء وحده يمكن أن يصنع الكوميديان مجده.

ولعل محمد سعد هو أصدق دليل على ذلك، فهو يَعتبِر نفسه فلتة عصره، وأهم كوميديان في جيله والأجيال التي سبقته، ولا يريد أن يواجه نفسه بالحقيقة التي يراها الجميع بوضوح وهو أنه صاحب موهبة كبيرة وعقل صغير، وأنه يسير بخطى ثابتة نحو نهاية مبكرة –قد تعيد إليه صوابه– فهو لا يتعلم ويظن أنه عالم، ولا يفكر ويتصور أنه مفكر، رغم أن الجماهير من الإسكندرية إلى أسوان تعرف أنه لا يقدم سوى شخصية واحدة لا تتغير، ونمطًا مملًا ومكرَّرًا، ويصرُّ على الاستسهال والابتذال، وكلما زادت شهرته كلما تضاعف غروره.

لكن مشكلة محمد سعد أنه لا يصدِّق إلا نفسه ولا يسمع إلا صوته، فقد برع في أداء شخصية "اللمبي" ونجح بها وصار نجمًا، لكنه لم يحاول أن يتقن غيرها، ولم يراهن على موهبته وقدراته، بل إنه بعد أن كان بطلًا في العمل أصبح يرى أنه العمل نفسه، وعلى الجميع الخضوع لرأيه ورؤيته بداية من المخرج ومرورًا بالمؤلف وحتى زملائه من الممثلين، وبالتالي لم يعد يعمل معه إلا أنصاف المخرجين والمؤلفين والفنانين.

إنها آفة شباك التذاكر الذي يظن محمد سعد أنه كل شيء، وأنه ما دام يحقق إيرادات فهو الأفضل، والأهم، والأنجح، ولا يشعر بهذا إلا لأنه لا ينظر حوله، ولا يشاهد منافسيه الذين تجاوزوه رغم أنه كان يسبقهم حين كان مخلصا لفنه لا لشباك التذاكر، وبدلا من أن يصل إلى قمة المجد وصل إلى قمة الغباء من كثرة أدوار الغباء التي تركت بصمتها عليه.

والحقيقة -كما يقولها خيري شلبي- أنه لا يوجد ممثل واحد ممَّن يزعمون أنهم كوميديانات، لا يلعب على تنويعات لقيمة العبيط الأبله المتخلف عقليًّا من محمد صبحي إلى محمد هنيدي، ومن سمير غانم إلى أحمد آدم، ومن عادل إمام إلى محمد سعد، فجميعهم إذا جردناهم من شخصية العبيط الأهبل المتخلف عقليًّا، فكأننا قطعنا عنهم الكهرباء!

لكن محمد سعد وحده وقع أسيرًا لهذه الأدوار، ولم يخرج منها، فأصرَّ على تقديم شخصية واحدة فقط أصلها ثابت واسمها يتغير-أحيانًا- من أجل تغيير "الأفيش"؛ فمرة يكون "اللمبي وأخرى "عوكل وأحيانًا "بوحه" أو "كركر" أو "كتكوت" أو "بوشكاش" وعندما يضيق به الحال ويشعر أن الجمهور انصرف عنه يستعيد مرة أخرى اسم "اللمبي" بدلا من أن يستعيد محمد سعد!

إنه "محمد سعد اللمبي هكذا عرفناه، ناظر مدرسة "الجمهور المغفَّل عايز كده"، لذلك لا يؤمن بالنقد وعندما اتهمه البعض بالديكتاتورية، وحب الظهور الدائم، واحتكار البطولة المطلقة كان رده: الجمهور هو صاحب الحكم في مدى تفضيله للشخصية وهل كانت سيئة أم لا!

إنه خريج نفس مدرسة إسماعيل ياسين التي تؤمن بنظرية الجمهور الغبي، لكن هناك فرقا بين الاثنين، فإسماعيل ياسين كان نمطًا مغايرًا في

مجتمعه، فلم يكن الاستسهال والابتذال والأفكار السطحية هي الأصل عنده، بل كانت مجرد نمط مختلف يؤدي دوره في إطار نظام كان يوظف الفن في خدمة أهدافه الوطنية.

لكن محمد سعد –رغم أنه لم تكن له أي علاقة مباشرة بالنظام– كان خير ممثل له وأفضل تجسيد للتوقيت الذي ظهر فيه، فقد بدأ رحلته نحو الشهرة بالصدفة وذلك عندما ذهب الراحل علاء ولي الدين إلى المخرج شريف عرفة ليقترح عليه اسم زميله محمد سعد ليقوم بتقديم دور "اللمبي" في فيلم "الناظر"، لكن المخرج رفض؛ لأنه اختار ممثلًا آخر لنفس الدور، وهو محمد لطفي، إلا أن علاء لم ييأس، وحاول بكل الطرق إقناع المخرج باختيار زميله محمد سعد، لأنه "مش هيقدر يكسر بخاطره بعدما وعده"، فوافق عرفة بعد إلحاح من علاء!

وظهر "اللمبي"، وتألّق في عام ٢، ذلك العام الذي انضم فيه جمال مبارك إلى الحزب الوطني، وبعد عامين فقط أصبح محمد سعد بطلًا لأول مرة في فيلم "اللمبي" وحقق أعلى إيرادات في تاريخ السينما –وقتها– وصار نجم الشباك الأول وتصدر الساحة الفنية.

في نفس التوقيت بدأ جمال مبارك رحلة صعوده في سلم الحزب –من أعلاه– بتوليه خطة أمين لجنة السياسات التي تولت "رسم السياسات" للحكومة و"مراجعة مشروعات القوانين" التي تقترحها حكومة الحزب قبل إحالتها إلى البرلمان.

مجرد صدفة، لم يتم الإعداد أو الترتيب لها لكن تم استثمارها بالشكل الأمثل، وكلاهما استفاد منها، رغم أنه لا وجه للمقارنة بينهما، فالفنان محمد سعد صاحب موهبة حقيقية (حتى وإن فرّط فيها)، وله جمهور

كبير (حتى وإن قصَّر في حقه) وقد صعد سلم النجومية بمفرده وبمجهوده وبعرق جبينه بعد رحلة طويلة من العناء، والاجتهاد والإصرار والتحدِّي، بينما صعد نجل الرئيس المخلوع إلى السلطة بفضل نفوذ وسلطان والده الذي ظن أنه دائم وأنه من حقه أن يرثه.

لكن "اللمبي وجمال مبارك كانا وجهين لعصر واحد تعالى على الناس واعتبرهم مغفَّلين، وقد ظهر نتاج ذلكِ في عام ٢٠٠٩ عقب مباراة مصر والجزائر المؤهِّلة لكأس العالم والتي أُقيمت في السودان، فيومها خرج الفنان محمد سعد –رغم أنه قليلِ الظهور– على التليفزيون المصري وسبَّ شعب الجزائر، ثم قال" أنا لو طلَّعت اللمبي دلوقتي هروح أقلع لهم مَلط" واختتم حديثه بالثناء على نجلي الرئيس "علاء وجمال مبارك" وأشاد بمواقفهما الرائعة.

محمد سعد حقق الشهرة والمال في ظل حالة من الإحباط كانت سائدة ومسيطرة وكانت الأفلام الكوميدية هي المتنفَّس الوحيد للناس، وجمال مبارك استثمر تغييب الناس، لكن المدهش أن أكثر المغيبين كانوا من الفنانين، وقد تجلَّى ذلك بوضوح شديد في أثناء ثورة يناير، فأغلب تصريحات الفنانين في هذه الفترة اتسمت بالجهل والغباء، وكان في صدارتهم الكوميديان طلعت زكريا الذي صنع شهرته من كونه "طباخ الرئيس

هذا الطباخ هو نتاج "اللمبي المغيَّب الذي لا يستطيع أن ينطق الحروف سليمة، أو ينطقها وكأنه مخمور لا يدري بما يدور حوله، لكن "اللمبي رغم كل عيوبه لم يكن منافقًا، ولم يفكر أبدًا أن يعمل خادمًا للرئيس، لكنه خدم نظامه دون أن يدري بتقديم أدوار ساذجة أسهمت في انحطاط الذوق العام.

وقد تساءل الأديب خيري شلبي في إحدى مقالاته عن الأسباب التي أدت إلى رواج موجة من الأفلام الخرقاء التي لعب بطولاتها أقزام عاطلون عن الموهبة والثقافة حوَّلتهم فلوس الإعلانات إلى سلع رائجة على الرغم من زيفها فإنها تطرد العملة الجيدة من السوق؟!

وأجاب بقوله: إن هؤلاء الباحثين عن الأسباب عليهم أن يلتمسوها من "تقليب" ذلك الملك المسمي بالكوميديا، فهناك أسماء وظواهر عديدة أسهمت في انهيار الأداء الكوميدي الراقي، منها التهريج والاستسهال والنشاط في الاقتباس والتعريب والتلفيق في كتابة النصوص، وكذلك ميل الممثلين إلى الإضحاك بأي شكل وعلى حساب أي قيمة في ما يعرف بـ"المسخرة"، وأيضًا الميل إلى الاستعباط على المسرح، والغلوُّ إلى حد "الرذالة"

انتهى كلام عمنا خيري شلبي، لكن الغريب أن الكوميديان في أغلب بلاد الدنيا هو أكثر الفنانين حكمة ومعاناة، فهناك قصة تُروى عن رجل فرنسي ذهب إلى أحد الأطباء النفسيين، وهو في حالة من الكرب الشديد، وقال للطبيب: إنني أعاني من حالة مفزعة من التعاسة والاكتئاب، هل يمكنك أن تصف لي بعض الأقراص، أو أي شيء يمكنه أن يساعدني في التغلب على هذه الحالة؟ فأجاب الطبيب النفسي قائلا: أنت لا تحتاج إلى أقراص، اذهب وشاهد "جروك" المهرج الشهير، إنه سيبهجك ويجعلك تشعر بالتحسن، فأجاب الرجل التعس"يا دكتور أنا جروك"!

الفصل الخامس

صناعةُ الغبيِّ

"وراء كلَ حاكمٍ غبيٍّ رجلٌ أفّاقٌ يرتدي
عباءة الدين، وإعلامٌ مُضللٌ، وتعليمٌ
فاسدٌ، وأعوانٌ فَجَرَةٌ، وشعبٌ مغيَّبٌ".

دورُ التعليم في صناعة الغبيِّ

وضع مجموعة من العلماء خمسة قرود في قفص واحد، وفي وسط القفص يوجد سلَّم وفي أعلى السلَّم هناك بعض الموز، وفي كل مرة يصعد أحد القرود لأخذ الموز يرش العلماء باقي القرود بالماء البارد، بعد فترة بسيطة أصبح كل قرد يصعد لأخذ الموز يقوم باقي القرود بمنعه، وضربه حتى لا تُرشَّ بالماء البارد.

بعد فترة لم يجرؤ أي قرد على صعود السلَّم لأخذ الموز على الرغم من كل الإغراءات خوفًا من الضرب.

بعدها قرر العلماء أن يقوموا بتبديل أحد القرود الخمسة، ويضعوا مكانه قردًا جديدًا، فأول شيء يقوم به القرد الجديد أنه يصعد السلَّم ليأخذ الموز، ولكن فورًا الأربعة الباقية تضربه و تجبره على النزول، وبعد عدة مرات من الضرب يفهم القرد الجديد بأن عليه أن لا يصعد السلم مع أنه لا يدري ما السبب.

بعدها قام العلماء أيضًا بتبديل أحد القرود القدامى بقرد جديد، وحلَّ به ما حلَّ بالقرد البديل الأول، حتى إن القرد البديل الأول شارك زملاءه الضرب و هو لا يدري لماذا يضرب، وهكذا حتى تم تبديل جميع القرود

الخمسة الأوائل بقرود جديدة، حتى صار في القفص خمسة قرود لم يُرَش عليهم ماء بارد أبدًا، ومع ذلك تضرب أي قرد تُسوِّل له نفسه صعود السلم دون أن تعرف ما السبب!

لو فرضنا.. وسألنا القرود لماذا تضربين القرد؟ الذي يصعد السلم؟

من المؤكد سيكون الجواب: لا ندري ولكن وجدنا آباءنا وأجدادنا هكذا يفعلون.

هذا بالضبط ما يفعله التعليم! فلو سألنا أي طالب أو مدرس:

لماذا يدرس طلاب الأدبي مادَّة علمية؟ ولماذا يدرس طلاب العلمي مادَّة أدبية؟

ومن صاحب فكرة تقسيم طلاب الثانوية العامة إلى علمي وأدبي، وعلمي علوم، وعلمي رياضة؟

وهل هناك دولة في العالم تقوم بهذا التقسيم للطلاب؟

ومَن صاحب فكرة تغيير مناهج التاريخ مع تغيير الرئيس؟

وكيف يتم وضع صورة الرئيس الحالي على غلاف كتاب اسمه "التاريخ"؟

وهل يمكن أن تكون إنجازات الرئيس الحالي جزءًا من التاريخ؟

ولماذا كانت الثانوية سنة واحدة ثم أصبحت سنتين؟

ولماذا تم عمل تحسين للمجموع ثم تم إلغاؤه؟

ومَن صاحب فكرة مكتب التنسيق وأرقام الجلوس والأرقام السرية؟

ولماذا ينسى الطالب المناهج التي درسها بعد الامتحانات؟

وما الهدف من التعليم إذا كان الطلاب لا يتذكرون ما قاموا بدراسته؟

وهل هناك دولة بخلاف مصر تضع الامتحانات في مستوى الطالب المتوسط؟!

وعلى أيِّ أساس تم إلغاء السنة السادسة في المرحلة الابتدائية؟ ولماذا تمت إعادتها؟!

لا أعتقد أن هناك طالبًا أو مدرسًا في مصر يعرف إجابة سؤال واحد من هذه الأسئلة ويثق بصحة جوابه، والسبب في ذلك أننا تبنينا نظرية القرود عندما تحول التعليم من قضية قومية إلى قضية أمن قومي، والفرق بين الاثنين كبير وشاسع، فعندما يكون التعليم قضية قومية يشارك في وضع معاييره كل التيارات الفكرية وبالتالي يتم إرساء قيم التفكير وإعمال العقل، ويكون هدف الطالب هو الوصول إلى المعرفة والبحث عن الحقيقة لا عن النتيجة، وذلك كان يحدث عندما كان الهدف من التعليم هو المعرفة وتنمية المهارات ورفع معدلات الذكاء.

فقديمًا اتفق أستاذ مع تلميذه على أن يعلمه صناعة الحُجَج والبراهين ويخرِجه للدفاع في القضاء والمنازعات العامة خلال عامين بأجر متفق عليه، فلما انتهى العامان طلب الأستاذ أجره، فقال التلميذ: بل أناقشك في هذا الأجر هل تستحقه بعملك أو تطلبه بغير حق، فإن أقنعتك بأنك لا تستحقه فلا حق لك فيه باعترافك، وسكوتك حُجَّة على هذا الاعتراف، وإن لم أقنعك فلا حق لك فيه لأنك لم تعلمني كيف أقيم البرهان على دعواي.

وكان جواب الأستاذ أنه قال: إنني أقبل أن أناقشك ولكن على غير النتيجة التي خلصت إليها.. أناقشك في حقي فتعطيه مرة إذا ثبت عليك

وتعطيه مرتين إذا لم أثبته أمامك لأنني علّمت تلميذًا ما يغلب به أستاذه في صناعة البرهان، مع اتفاقهما أولا على الحق الذي يتنازعانه في النهاية.

لكن ما حدث في الفترة من يوليو ١٩٥٢ حتى يناير ٢، هو أن التعليم صار قضية "أمن قومي فتم حذف اسم محمد نجيب أول رئيس جمهورية، من المناهج الدراسية طوال فترتي حكمي عبد الناصر والسادات، وبدلا من أن تتم الاستعانة بعمداء الكليات كخبراء في التعليم تمت الاستعانة بعمداء الشرطة، وبعد أن كان دور الأمن يقتصر على نقل أوراق أسئلة امتحانات الثانوية العامة وتأمين اللجان أصبح فرد الأمن يختار المعلم المثالي، ويقوم بترشيح مديري المديريات التعليمية، وبالتوقيع على أسماء المدرسين الجدد، ويسهم في اختيار أسماء المدارس، لذلك كان منطقيًّا أن نجد ٨٨٠ مدرسة تحمل أسماء رؤساء مصر وعائلاتهم، منها ٤٩٩ مدرسة لعائلة مبارك (٣٣٨ مدرسة للرئيس المخلوع مبارك، و١٦٠ لزوجته، وواحدة لجمال)، هذا بجانب ٢٠ مدرسة للرئيس السادات و٣ لزوجته و٠ ١ للرئيس عبد الناصر، أما أول رئيس لمصر فنصيبه ١٤ مدرسة فقط.

ما كان يمكن للأمن أن يتدخل في التعليم إذا لم يكن هناك قرار سياسي بذلك، هذا القرار كان هدفه "تسييس التعليم" وجعله في خدمة النظام، وبالتالي أطلقت يد الأمن، فأصبح يشارك في اختيار واضعي الامتحانات، وبالتالي كان من الطبيعي أن تتغلب لغة "التكفير على "التفكير وأن يتم اختزال دور المدرسة في شرح المناهج، ثم تحل الدروس الخصوصية محلها، ويتم اختزال الدروس في المراجعات، ثم بمرور الوقت يتم اختزال المراجعات في أسئلة ليلة الامتحان لنصل في النهاية إلى "البرشام" ومن ثم انتشار الغش في اللجان سواء أكان هذا الغش فرديًّا أم جماعيًّا.

التعليم كان دائمًا –وربما سيظل– في خدمة النظام، والدليل على ذلك ما حدث في عام ١٩٧٨، عندما اجتمع الرئيس السادات بالدكتور مصطفي كمال حلمي وزير التربية والتعليم وقتها، وقال له "الناس غضبانة في الشارع.. أنا عايزهم ينبسطوا في امتحانات الثانوية.. نّجح الولاد يا مصطفى"

وطبعًا معالي الوزير سمع الكلام ونجَّح الأولاد بناءً على توجيهات السيد الرئيس!

ومنذ ذلك اليوم ظلت نسبة النجاح في الثانوية العامة تتراوح بين ٨٢ و٨٨٪ بغض النظر عن تفاوت مستويات الطلاب من سنة إلى أخرى.

من هنا لم تعد هناك قيمة للعلم، فالقيمة الوحيدة التي سعت نُظم الحكم المتتالية لترسيخها هي قيمة النتيجة أيًّا كانت الوسيلة، وبالتالي حرصت الأنظمة رغم اختلاف توجهاتها على أن تكون مناهج التعليم خالية من الإبداع وتخدم توجهاتها، لذلك بدلا من أن تسهم المناهج في ارتفاع نسب الذكاء وتنمية القدرات والمهارات لدى الطلاب أسهمت في انخفاض معدلات الذكاء، ونشر الخرافات بين خريجي المدارس والجامعات.

إذن.. لا أبالغ إذا قلت إن التعليم أسهم في التجهيل بعد أن أكدت الإحصائيات الرسمية لوزارة التربية والتعليم أن ٣٠٪ من تلاميذ المدارس الابتدائية والإعدادية لا يجيدون القراءة والكتابة، وحتى من حصلوا على شهادات جامعية أغلبهم لا يدركون ما يجري حولهم، ولا يقرؤون أكثر من الكتب المقررة –إن قرؤوها– وبالتالي فبدلا من تنمية الخيال تمت صناعة الغباء.

وهذا ما خطط له وأراده النظام لكن ما حدث أثبت أنه كان غبيًّا حين ظن أن الأكاذيب يمكن أن تخلِّده في كتب التاريخ المدرسية، فبعد ثورة يناير قامت وزارة التعليم التي تسير بناءً على توجيهات السيد الرئيس بحذف صورة الرئيس المخلوع مبارك من على أغلفة الكتب، وتم الحديث عنه باعتباره مزور الانتخابات وراعي الفساد الذي فشل في تحقيق أي إنجاز طوال ثلاثين عامًا.

وذلك بعد أن كانت نفس الكتب تتحدث عن مبارك باعتباره بطل الحرب والسلام والامتداد الطبيعي لثورة يوليو، وأنه حقق ما عجزت ثورة يوليو عن تحقيقه، واستعاد لمصر دورها الرائد في العالم العربي، وحقق مبدأ تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية، وحرص على استرجاع الأراضي العربية المحتلة وعلى رأسها القدس العربي والجولان السوري وإقامة الدولة الفلسطينية، علاوة على الاهتمام بالطبقات الفقيرة والتوسُّع في تقديم الرعاية الاجتماعية للمحتاجين، وزيادة الإنفاق على دعم السلع والخدمات لمحدودي الدخل!

الغريب أن من قام بوضع هذا الكلام في كتب التاريخ المقررة على طلاب المدارس، هو المؤرخ العسكري اللواء جمال حماد أحد الضباط الأحرار، الذين شاركوا في ثورة يوليو!

إعلام يفكِّر بالقَدَم

إعلام الغبي يشبهه!

يُضلِّل الناس وهو يظن أنه ينصحهم، ويدافع عن الأوهام باعتبارها حقائق، ويروَج للأكاذيب باعتبارها مُسلَّمات، لكنه لا يعي خطورة ما يفعل!

هذه آفة الإعلام الغبي؛ فهو إعلام دعائي يفكَر بلسانه لا بعقله، ويُصدِّق الأكاذيب، ويُكذِّب الحقائق، ويدافع عن الشيء ونقيضه، وتحرِّكه الأهواء لا الأرقام، ويروِّج للخرافات، ويصنع الأزمات بدلا من أن يشارك في حلِّها، ويشعل الفتن بدلًا من أن يسهم في إخمادها، ويزيد أوجاع الناس بدلًا من أن يخفِّف آلامهم، ويفتي بغير علم في كل شيء، ويردِّد ما يقوله الحاكم كالببغاء، ويختزل تاريخ البلد في إنجازات حاكمها، ويعتبره ملهمًا وحكيمًا وعليمًا ولا يُسأل عما يفعل، ومعارضوه يُسألون!

الغبي في الإعلام كلنا نعرفه ونحفظ اسمه، فقد تحول من نكرة إلى مذيع إلى إعلامي إلى صاحب قناة في غفلة من الزمن، ويتحدث كما لو أنه عليم ببواطن الأمور، ويظن أن "الهرتلة" بطولة، وأن "التخريف" تضحية، وأن استهزاء الناس به نجاح. والغريب أنه من كثرة السخرية منه صار بطلًا

في نظر مريديه الذين ينتظرون آراءه رغم أنه لا يملك سوى نوعين من الكلام إما "كلام فارغ" وإما "كلام مليان كلام فارغ" –على رأي عمنا أحمد رجب– فعندما يتحدث عن شروط مرشح الرئاسة يقول: المرشح لابد أن يعرف كيفية تزغيط دكر البط وكم يتكلف ذلك، وسعر دكر الوِزّ في سوق الثلاثاء وسوق الخميس، وسعر "البارك" –الركنة– بتاع البقرة في السوق!

إن الحاكم الغبي يستمد قوته وجبروته وسطوته بفضل إعلام أغبى منه، يقوده الحَمْقَى الذين يستخدمون كلمات لا يفهمون معانيها، ويروِّجون لمصطلحات لا يعرفون أصلها، ويفتون بغير علم أو عقل أو وعي، ويُقسمون دائمًا أنهم لا يقولون إلا ما يرضي ضمائرهم، ويرددون دائمًا أنهم "لا مع حد ولا ضد حد" وأنهم "مش بيقبضوا" و"مش محسوبين على حد" وأنهم لا يرجون بما يقولونه إلا وجه الله.

لكنهم في الحقيقة يلعبون دور محامي الشيطان وهم لا يعلمون، لذلك يحرص أعوان الحاكم من الأذكياء على استخدام هذا النمط من الإعلاميين، ويعطونهم معلومات مغلوطة وأنصاف الحقائق باعتبارها انفرادات، ويظهرون معهم في برامجهم؛ لأنهم يدركون أن شعبية هؤلاء يمكن أن تحقق للحاكم ما يعجز المنافقون عن تحقيقه.

فحين قال جوبلز –وزير الدعاية النازية– "أعطني إعلامًا بلا ضمير أُعطك شعبًا بلا وعي" لم يكن يتصور أن يكون هناك إعلام بلا عقل يحرِّض دون أن يدري خطورة ما يفعله، لكن هذا يعد إفرازًا طبيعيًا لتسلل من صنعوا مجدهم بأقدامهم إلى الإعلام الرياضي الذي لم يعد يشترط في مقدِّم برامجه إلا أن يكون مشهورًا أو نصف مشهور حتى يصير مذيعًا لأحد البرامج الرياضية التي تركت بصمتها على الغباء الإعلامي، فصار

يُدَار بالقَدَم لا بالقلم، فتغيرت المفاهيم واختلطت المعايير، وأصبح كل من قاده الحظ ليظهر في التليفزيون إعلاميًا كبيرًا، مثلما صار كل خبر "بايت" انفرادًا وكل تصريح "تافه" حدثًا.

إنها نفس المعايير الساذجة التي جعلت الناشئ الذي يظهر بصورة جيدة في مباراة نجمًا تتنافس عليه الأندية، وهذه هي ضريبة سيطرة ثقافة التفكير بالقَدم، وانتشار الخرافات على الشاشات، وإصرار الجهلاء على الحديث في السياسة، باعتبارهم يتحدثون بلسان البسطاء وهم في الواقع يضللونهم.

فالغبي في الرياضة يقوم بتخصيص فقرة كاملة وثابتة للإفتاء السياسي قبل أن يذهب إلى الإفتاء الكروي، ويصر على التعليق على كل الأحداث السياسية حتى وإن تسبب كلامه في كوارث سياسية ودبلوماسية، ويظن أن من يهاجمونه حاقدون عليه -حتى وإن كانوا مشفقين عليه- ولا يقارن نفسه إلا بالمنافقين، والأفَّاقين والمدَّعين والسائرين مع الموجة، ويظن نفسه أنه ما دام ليس من هؤلاء فهو إمام الصادقين، لكنه في الحقيقة زعيم المغفَّلين.

إنه يفخر بغبائه أحيانًا لينفي عن نفسه تهمة النفاق، لذلك يجب أن نعي وندرك الفرق بين الإعلامي الغبي والمنافق، فالغبي لا يحصل على الثمن بصورة مباشرة، فهو لا ينتظر مقابلًا ماديًا ولا يطمح في الوصول إلى منصب، لكن أقصى طموحه أن يشعر أن مديحه للحاكم ووقوفه بجواره هو بمثابة رد الجميل، وخدمة جليلة للوطن، أما المنافق فهو ينتظر الثمن، والمنافقون نوعان:

١- **المنافق الذكي**: تعرفه من "قفاه"، فهو يقف مترقِّبًا ليركب الموجة، ويبحث عن الفريق المنتصر ليقف في مقدمته، ويتحدث بلسانه،

ويعلن تأييده لأي شيء وكل شيء، وهو في حالة استنفار دائم في إظهار الولاء لمن يدفع أكثر، وعندما تواجهه يزايد عليك مستخدمًا عبارته الأثيرة "يا عزيزي كلنا منافقون"!

إنه "كداب الزفة" صاحب نظرية "معاهم معاهم.. عليهم عليهم"، الذي يغيِّر جلده وفقًا لمصلحته، ويلعب كل الأدوار المطلوبة منه باقتدار، فأحيانًا يلعب دور المعارض لكنه لا يعارض إلا من قرَّر النظام الاستغناء عن خدماته وطرده من جنته فيحصل على رضا الحاكم ويقترب منه ويُجرِي حوارات معه، ويركب طائرته ويذهب معه في زياراته، وبمجرد أن يختفي الحاكم لأي سبب ينقلب عليه ويلعنه!

٢- **المنافق الغبي**: وهو يفعل كل ما يمليه عليه رضا الحاكم (أيُّ حاكم) دون تفكير أو محاولة لبذل الجهد من أجل نفاق أفضل، فعندما يقول الرئيس يمينًا تجده أول الداعمين، وعندما يقول شمالًا تجده أول المؤيدين، فغالبًا ما تجد نفاقه "رخيصا"، فهو يلجأ إلى أحط فنون النفاق، وأكثرها مثارًا للسخرية والاستياء، ولعل المثال الأبرز والأشهر والأكثر حماقة هو ما كتبه رئيس تحرير "أخبار اليوم" السابق ممتاز القط تحت عنوان "طشة الملوخية" وقال فيه: "الرئيس ربما يكون المصري الوحيد الذي لا يأكل محشي الكرنب والباذنجان والفلفل، وربما يكون المصري الوحيد الذي لا يشم طشة الملوخية أو البامية أو يعرف طعم صيادية السمك"!

لكن أخطر دور يلعبه الإعلام هو تزييف الوعي، وقد يقوم بهذا الدور الأذكياء لكن غالبًا ما يعاونهم الحَمْقَى، فالسلطة غير المنطقية لا تستطيع الاستمرار لفترات طويلة إلا إذا قامت بعمليات تزييف للوعي الجماهيري فهي تريد أن تشكل هذا الوعي لكي يقبل منظومة السلطة وتوجهاتها،

لذلك تشكل أجهزة الدعاية والإعلام والإعلان لدى السلطة الجناح الآخر لبقائها، فتقوم هذه الأجهزة بالمبالغة في إظهار إنجازات السلطة وتبرير أفعالها وتحويل هزائمها إلى انتصارات تاريخية، كما تقوم بإضفاء صفات البطولة والحكمة والتضحية على رموز السلطة وتضع صورهم وتماثيلهم في كل مكان (وهو ما يسمى في علم النفس: الإعلان بالغمر أو الإعلان بالتكرار والإلحاح) فحيثما ذهبت يطالعك وجه القائد أو الزعيم أو تطالعك أقواله وإنجازاته وتوجيهاته.

وتنجح عمليات تزييف الوعي أكثر في المجتمعات ضعيفة الثقافة التي لا تملك عقلية نقدية تزن بها الأمور، تلك المجتمعات القابلة للإيحاء والاستهواء والتنويم والتغييب.

لكن ليس بالتزييف وحده يحقق الإعلام أهدافه، فلا بد أن يلجأ إلى الادِّعاء، فينسب إلى الحاكم أفعالًا لم يفعلها، ويمنحه بطولات لم يحصل عليها، فيفقد صاحب السلطة شيئًا فشيئًا تلقائيته ويتورط في سلوك ادِّعائي غير طبيعي بعيد عن الصدق والأصالة، ولذلك يفقد تعاطف الناس معه وإحساسهم به، وتزيد صفة الادِّعاء كلما زادت الأطماع في استمرار السلطة أو توريثها لأن صاحب السلطة هنا يريد أن يشكل وعي وتفكير الجموع في اتجاه مصالحه الخاصة فيلبس قناعًا يراه مناسبًا لتحقيق هذا الهدف.

غير أن التزييف والادِّعاء يتراكمان فيحجبان الحقيقة عن السلطة وعن الجماهير، ثم يجد الناس أنفسهم في حالة من الاضطراب والتناقض وتكرار الكوارث والهزائم على الرغم من الوعود والبيانات الوردية المتفائلة، وهنا يقترب الخطر حين تكتشف الجماهير أنها تعرضت لحالة من الخداع المنظم خصوصًا وهي تعيش حياة تَعسة كل يوم تكذِّب كل

ما تبثه الآلة الإعلامية الجبارة، عندئذ تشعر الجماهير بالغضب لسببين: الأول هو خداعها واللعب بها، والثاني هو شقاؤها الذي تعيشه في كل لحظة، عندئذ تحدث الانتفاضة أو يحدث الانفجار طالبًا الثأر ممَّن خدعوا وزيّفوا وأفقروا.

وقد قيل إن مبارك سأل وزير الإعلام: مين أفضل أنا أم عبد الناصر؟

فقال الوزير: انت طبعا يا ريس، عبد الناصر كان بيخاف من الاتحاد السوفيتي وانت لأ

فأعاد عليه السؤال مرة ثانية: طب أنا ولّا السادات؟

فقال له الوزير: طبعا انت يا ريس السادات كان بيخاف من الأمريكان وانت لأ

فأعاد عليه السؤال مرة ثالثة: طب أنا أفضل ولّا عمر بن عبد العزيز؟

فقال الوزير: انت طبعا، عمر كان بيخاف من ربنا يا ريس!

النفاق أساس الحكم!

وراء كلَ حاكم غبيٍّ أعوانٌ أذكياء يصنعون القرار من خلف ستار، ويحرِّكون الأحداثَ، ويخطِّطون، ويحرِّضون ويتركون غيرهم ينفِّذون، ويحتفظون بمواقعهم في الكواليس، ويستخدمون كل الأدوات المتاحة من رجال دين وإعلام، ومناهج تعليم تتحدث عن حكمة الحاكم وإنجازاته، كي يحتفظ الغبي بموقعه أطول فترة ممكنة، وبالتالي يحفظون مواقعهم ويضمنون لأنفسهم الاستمرار، والاستقرار فوق كرسيّ السلطة.

فالحاكم الذي يظل فترة طويلة في الحكم رغم حماقته لا بد أن يكون له رجال على درجة عالية من الذكاء كي يحسِّنوا صورته، ويؤمِّنوا له البقاء، ويحموه من معارضيه، ويحيطوه بالمنافقين، لكن أكثر ما يحرص عليه أعوان الغبي هو أن لا يرى الشعب الحاكم إلا عبر الحواجز، والشاشات، ولا يقابل إلا من يسمحون لهم بلقائه، ويصرون على تضخيمه والإشارة إلى عبقريته ونفاذ بصيرته وحكمته وعلمه، ويزرعون بداخله أن شخصيته لها جلال وهيبة تمنع أن يخاطبه أحدٌ مباشرة، وأنه لا يخطئ ولا تخفى عليه خافية، وما من معرفة إلا وقد أحاط بها، وأن كل ما يتفوَّه به يجب أن ينفذ فورًا ودون مناقشة، وهكذا نرى الحَمْقَى من الحكام يعيشون طوال حياتهم لا يعرفون حقيقتهم ولا حقيقة شعور شعوبهم تجاههم.

إن أعوان الغبي يجعلون منه طاغية بشرط أن لا يطغي عليهم، لذلك يرى أفلاطون أنه إذا وُجد في الدولة عدد كبير من الأعوان الأذكياء، ومن أتباعهم، وشعروا بقوتهم، فإن هؤلاء –مستعينين بغباء الشعب– هم الذين يخلقون الطاغية، إذ ينتقونه؛ لأنه هو الشخص الذي تنطوي نفسه على أكبر قدر من الطغيان!

أعوان الحاكم الغبي سواء أكان ملكًا أم أميرًا أم خديويًّا أم سلطانًا أم رئيسًا يحرصون على أن يكون بمثابة فرعون وهم جنوده، ولا يتحقق ذلك إلا إذا قاموا بتضخيمه وأحاطوه بالمنافقين.

وتأمَّل أي حكم استبدادي في أي مرحلة من مراحل التاريخ، تجدْ انتشارا لجميع الرذائل لا تخطئه العين العابرة: الجبن، والخوف، والنفاق، والكذب، والرياء، والمداهنة، وعدم الإخلاص في العمل، ومحاولة الإفلات من القانون بشتى السبل! فها هنا لا يعبِّر المواطن عن رأيه بصراحة إلا إذا اطمأن إلى أن محدثه لن يشي به، ولن يبلغ السلطات عن رأيه[١]!

قاعدة واحدة يسعى الأعوان لترسيخها وتأكيدها، والحفاظ عليها، واستمرارها والدفاع عنها ألا وهي أن "النفاق أساس الحكم"، فلولا المنافقون ما استطاع الأعوان تحقيق أهدافهم وإقناع الحاكم بما يريدونه، لذلك أهم ما يفعلونه هو أن يجعلوا الحاكم يختلط بالمنافقين الذين هم على استعداد لخدمته في كل شيء، سواء أكانوا من العامة أم من كَتَبة الملوك ووعاظ السلاطين والشعراء والمثقفين والفنانين.

غير أن النفاق قد لا يكون سلوكًا مميِّزًا للفرد فحسب، بل قد ينسحب على الجماعات أيضًا على نحو ما نجد في الصحف من آيات التهاني

---

[١] إمام عبد الفتاح: "الطاغية"، ص ١٥

والمباركات والتمنيات في كل مناسبة، وكذلك الهتافات التي تشقُّ عنان السماء مفتدية الحاكم "بالروح وبالدم" وهي هتافات سمعناها مدوية في عهد عبد الناصر، وقيل لنا يومها: انظروا كيف يؤمن الشعب بأفكار القائد الملهم؟، وكيف يلتفُّ حوله فهو الذي زرع "العزة والكرامة" في نفوس الناس ولهذا فهم على استعداد أن يفتدوه "بالروح وبالدم" لكن من سوء حظهم، أن نسمع نفس الهتاف المدَوِّي في عهد الرئيس السادات الذي لم يجد أدنى صعوبة في تحويل دفة الحكم من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، ومن الانغلاق إلى الانفتاح، ومن الاشتراكية إلى الرأسمالية، ومن التحالف مع الشرق إلى الارتماء في أحضان الغرب، ومن إلقاء إسرائيل في البحر إلى التحالف معها، ومع ذلك كله وُصف بالحكمة، وبُعد النظر، وسداد الرأي، ودُبِّجت له قصائد المديح، وكُتبت له أغاني التمجيد والتهليل، وقوبل بنفس الهتاف الأجوف "بالروح وبالدم" الذي لا يعني شيئًا قَطّ، ولا يعبِّر إلا عن "النفاق الجمعي"[١]!

إن وراء كل حاكم غبي لا بد أن تجد رجلًا أفَّاقًا يرتدي عباءة الدين، وإعلامًا مُضلِّلًا، وتعليمًا فاسدًا، وشعبًا مغيَّبًا، وأعوانًا ظَلمة وفجرة، لكنهم أذكياء يسخِّرون كل شيء كي يبقى الحاكم فوق العرش ويظلون بجواره يتحكمون ويحكمون دون أن يشعرونه بذلك، فهم يعطونه التقارير التي تناسب القرارات التي يريدونها.

والسؤال: هل كل الطغاة أغبياء؟

والجواب: لا، لكن كل الأغبياء طغاة!

فالغبي لا بد أن يصبح طاغية، فالتهويل من قدراته من خلال أعوانه

[١] د.إمام عبد الفتاح إمام: "الطاغية"، ص ١٦

والمحيطين به، ومحاولته الإمساك بزمام الأمور، والبقاء في السلطة أطول فترة ممكنة لا بد أن يخلق منه طاغية، لكن ليس شرطًا أن يكون الطاغية غبيًّا فقد عرفت مصر في تاريخها طغاة أذكياء وأذكياء جدًّا، ولم يسقط حكم طاغية إلا إذا اقترنت أفعاله بالغباء الفادح والفاضح.

والغبي في اللغة هو من غاب عنه شيء. والسياسي هو من يتولى تسيير أمور الناس ورعاية مصالحهم. والمستبد هو المغرور برأيه والرافض لقبول النصيحة.

والغبي سياسيًّا هو نتاج هذه الثلاثية، ويمكن تعريفه بأنه ذلك الشخص المغرور برأيه والرافض قبول النصيحة، علاوة على أنه غير قادر على تسيير أمور الناس ورعاية مصالحهم لعدم إلمامه بكل شيء يجري حوله، ممَّا يترتب عليه قيامه بتصرف سياسي يتسم بالغباء، بينما هو يظن أنه الخيار الأفضل والأمثل.

لكن رغم ذلك قد يستمر الغبي سياسيًّا في الحكم لفترة طويلة لمجرد أن خلفه أعوانًا أذكياء ولديه شعب مغيَّب.

فلولا الأعوان الأذكياء ما وصل متوسِّطو الذكاء إلى كرسيّ السلطة!

المجانين في خدمة الحَمْقَى

هل أخطأ الحسين؟

هل أخطأ حين خرج من بيته وحيدًا أعزل ليواجه دولة بجيشها وجبروتها؟ هل أخطأ حين أغلق أذنيه عن نصح الناصحين له بعدم الخروج إلى العراق؟ هل أخطأ لأنه لم يحفل بالقوة القاهرة التي لا تُقَاس إليها قوة الصحبة المعدودة من أهل بيته والنَّفر القليل من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؟ هل أخطأ إذ لم يخضع حركته لموازين القوة المادية وحسابات الكرِّ والفر والمكسب والخسارة وما عسى أن يلقاه من بطش الجبارين المتعطشين إلى الدماء؟ هل أخطأ حين رفض الظلم؟[١]. هل أخطأ حين رفض المساومة والمقامرة والمفاوضة؟ هل أخطأ حين قرر أن يستشهد؟ هل أخطأ سيدنا الحسين بن الإمام علي والسيدة فاطمة وحفيد رسول الله؟!

أعتقد لو أن سيدنا الحسين –رضي الله عنه– ذهب إلى أحد رجال الدين في عصرنا لسَمِعَ فتاوى تدين ما فعله، وتضعه في مَصَافِّ من ألقى بنفسه إلى التهلكة، لكن حفيد رسول الله لم يستمع إلى فتاوى أعوان الظالم،

[١] جمال بدوي: "الطُّغاة والبُغاة"، ص٣٩

وهو الدرس الذي تعلمته السيدة نفسية بنت سيدنا الحسن فكانت تفتح أبواب بيتها أمام جموع المصريين، وقبل اندلاع الثورة بقليل كانت تحرِّض المصريين على المقاومة ضد الظالمين والوقوف في وجه الحَمْقَى من الولاة وحكام الأقاليم وعندما أبدى لها البعض عجزهم وضعفهم، قالت لهم: لم يكن الحسين إلا فردًا واحدًا أمام دولة غاشمة وملك عضود، ولكنه لم يهرب ولم يستسلم.

لم تكتف السيدة نفسية بالكلام، وإنما قادت ثورة الناس على ابن طولون لمّا استغاثوا بها من ظلمه، وخرجت إليه، ولما رآها نزل عن فرسه، فأعطته الورقة التي كتبتها وفيها: "ملكتم فأسَرْتُم، وقدرتم فقهرتم، وخوِّلْتم فَفَسَقْتُم، ورُدَّت إليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نفّاذة غير مخطئة لا سيّما من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوَّعتموها، وأجساد عرَّيتموها، فمُحالٌ أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإنَّا إلى الله متظلِّمون، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون"!

هكذا فعلت السيدة العظيمة التي علَّمت المصريين أن مقاومة الظالم لا تحتاج إلى جيوش، والوقوف ضد الطغيان لا ينتظر كشف حساب لموازين القوى، وقد سار على دربها كل مشايخ مصر الكبار وأصحاب الأضرحة الكبيرة والموالد المزدحمة، كانوا في صف الجماهير ضد الحاكم والوالي وعساكر السلطان، وكلهم وبلا استثناء ومن أول الإمام الشافعي وإلى الحسن الشاذلي والمرسي أبو العباس وسيدي أحمد البدوي والشاطبي والقباري وإبراهيم الدسوقي، كلهم قاوموا السلطة الغاشمة، وبعضهم اشترك في محاربة الغزاة وقيادة المقاومة ضد الغازي الأجنبي.

لم يخطر ببال مشايخنا العظام أن من سيرتَدُون عباءتهم، ويدَّعون

حبهم، سوف يحرِّمون الخروج على الحاكم الظالم، ويقفون ضد المظلوم، وينصرون القويَّ، ويوبخون الضعيف، وينافقون الرئيس، ويلعبون دور "المُحلِّل" الذي يُحلِّل للحاكم ما يريده، ويُحرِّم على خصومه ما لا يرضى عنه، ويبرر أفعاله، ويدافع عن جرائمه.

لكن تبقي أهم وأكبر خدمة وهدية يقدمها من يرتَدُون عباءة الدين إلى النظم الغبية والقمعية أن يشغلوا الناس بتوافه الأمور، ويبعدوهم عن القضايا الكبرى حتى يصير المجتمع تافهًا وغبيًا ومغيَّبًا مثل من يحكمه.

وفي هذه الظروف تكثر الفتاوى الغبية ومنها الفتاوى التي أصدرها أحد الشيوخ وحرَّم فيها على النساء والفتيات ملامسة بعض أنواع الخضراوات والفاكهة، مثل الموز والخيار بدعوى أنها ربما تؤدي إلى إغوائهن أو استثارة مشاعرهن!

ولم يتوقف الأمر عند الفواكه والخضراوات، بل تعدَّاه إلى تحريم بعض المأكولات، ومنها "السمبوسة"؛ فقد أصدرت حركة "الشباب المجاهدين في الصومال فتوى بتحريم أكل "السمبوسة" بدعوى أنها تحتوي أضلاعًا مسيحية تُشبه أضلاع الثالوث المُقدَّس المسيحي. لكن الأغرب من ذلك هو ما أفتى به الداعية المصري محمد الزغبي في يونيو من عام ١١ ٢ حين قال: إنه يجوز أكل لحوم الجن! وبالتالي ليس غريبًا أن نجد داعية آخر يفتي بوجوب قتل "ميكي ماوس"!

أما أغرب الفتاوى السياسية فجاءت على لسان محمود عامر القيادي بالتيار السلفي، حين أصدر فتوى حرَّم فيها التصويت في الانتخابات البرلمانية بشكل عام، معتبرًا أن مَن يصوِّت لصالح أحد المرشحين هو آثم، وخائن للأمانة! وقد سبق لعامر إطلاق فتوى تجيز توريث الحكم لنجل الرئيس الأصغر جمال مبارك قبل نحو عام من الثورة، وأطلق فتوى أخرى

بإهدار دم الدكتور محمد البرادعي بدعوى شقّ عصا الطاعة والخروج على الحاكم الشرعي الرئيس حسني مبارك.

ومن بين الفتاوى العجيبة ما أفتى به الشيخ ياسر برهامي نائب رئيس الدعوة السلفية وأحد مرجعيات حزب النور، بعدم جواز التصويت لصالح "التحالف الديمقراطي من أجل مصر" الذي يتزعمه حزب الحرية والعدالة الذراع السياسي لجماعة الإخوان المسلمين، في الانتخابات البرلمانية الحالية معلِّلًا ذلك بأن "التحالف الديمقراطي لم يأت لنصرة الدين والشريعة.

لكن أكثر الفتاوى انتشارًا هي فتوى حكم عمل "التَّاتُّو"، وهل "تَاتُّو الحواجب" حرام؟ وهل "التَّاتُّو المؤقت" حلال؟ وما الحكم الشرعي في عمل الرجل لـ"التَّاتُّو"؟!

هذه الفتاوى وغيرها ينطبق عليها ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن عمر "من أفتى في كل ما يُسأل فهو مجنون" وما أكثر المجانين الذين يعملون في خدمة الحمْقَى من الحكام.

فلا يوجد حاكم يصل إلى حد الغباء إلا إذا كان بصحبته رجل يرتدي عباءة الدين يروِّج لخرافاته، ويخلع عليه صفة القداسة، حتى تصبح كوارثه زلَّات، وجرائمه أخطاء، وكلامه حكمة وتدخُّله رحمة، لكن ليس ذلك كله نفاق وإنما أغلبه غباء، رغم أن كلمة "العقل ذُكرت في القرآن ٤٩ مرة، وكذلك كلمة "النور" لنعرف وندرك ونعي ونعلم أن العقل نور، وأن الشيوخ الذين اختزلوا الإسلام بكل عظمته وحكمته وأحكامه في حكم عمل "التَّاتُّو"، وجواز صناعة "السمبوسة" ليسوا فقط حَمْقَى وإنما هم أيضًا يحرِّضون على الحماقة والتفاهة حتى لا يسمع الملوك أنَّات الشعوب.

لكن التاريخ لا يذكر هؤلاء، وإنما يتذكر فقط العظماء أمثال محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، وكلاهما كان من كبار المعارضين للسلطة والمحرضين ضدها، والداعين للخروج عليها، لدرجة أن الإمام الأفغاني قد اقترح على الإمام محمد عبده قتل الخديو إسماعيل، وقد اتَّفقا على ضرورة الخلاص منه رحمة بالأمة.

ويروي الإمام محمد عبده هذه الواقعة بقوله: كان الشيخ جمال الدين الأفغاني موافقًا على خلع إسماعيل، واقترح عليَّ أنا أن أقتل إسماعيل، وكان يمر في مركبته كل يوم على جسر قصر النيل، ولكن كل هذا كان كلامًا نتهامسه بيننا، كنت أنا موافقًا الموافقة كلها على قتل إسماعيل في ذلك الوقت فربما كان في إمكاننا أن ننظِّم الحركة؛ لأن قتل إسماعيل في ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكننا عمله وكان يمنع تدخل أوروبا.

رحم الله الدعاة العظام، وندعوه أن يرحمنا من الأدعياء الحَمْقَى!

كتب مُلهِمة

١- نجيب محفوظ، أمام العرش.

٢- د.نعمات احمد فؤاد، صناعة الجهل.

٣- د. جمال حمدان، شخصية مصر.

٤- عباس العقاد، التفكير فريضة إسلامية.

٥- حسين فوزى، سندباد مصرى.

٦- الإمام محمد عبده، الأعمال الكاملة، الكتابات السياسية.

٧- عبد الرحمن الكواكبى، طبائع الاستبداد.

٨- محمود السعدنى، مصر من تانى.

٩- الشيخ محمد الغزالى، الإسلام والاستبداد السياسى.

١٠- محمود السعدنى، المضحكون.

١١- جوستاف لوبون، سيكلوجية الجماهير.

١٢- ابن الجوزى، أخبار الحمقى والمغلفين.

١٣- توفيق الحكيم، شجرة الحكم السياسى.

١٤- د.شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك.

١٥- د. محمد المهدى، سيكلوجيا السلطة.

١٦- د. أحمد عكاشة، ثقوب فى الضمير.

شكر خاص

إلى الدكتور الرائع والراقى عماد عبد اللطيف
أستاذ تحليل الخطاب بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة

شكر واجب

إلى أخى وصديقى المبدع والجدع أشرف توفيق

شكر دائم

إلى أخى وصديقى "أحمد الليثى" شريكى الرئيسى فى كل كلمة كتبتها

صدر للمؤلف

"أيام صلاح جاهين"، إبريل ٢٠٠٩ (دار العين للنشر).

"مصر بتلعب.. كيف تحول الشعب المصرى إلى جمهور؟"، مايو ٢٠١٠ (دار المصري للنشر).

"أحمد رجب.. ضحكة مصر"، مارس ٢٠١١ (دار المصري للنشر).

للتواصل:

Mtawfek11@yahoo.com

الكاتب الصحفى الصاعد محمد توفيق غاص فى صفحات التاريخ قديمه وحديثه ليقدم لنا كتابه الجديد الطريف "الغباء السياسى" من عهد الرومان إلى آخر خلفاء بنى أمية الذى اشتهر باسم الخليفة الحمار إلى قراقوش الذى يدافع عنه محمد توفيق باعتباره رجلا عادلا وليس مجنونا كما صوره ابن مماتى فى كتابه الفاشوش فى حكم قراقوش، وكيف كان يصبح الخديوى الذكى غبيا أمام نزواته الجنسيه، ثم الحكام المعاصرين، وكيف يصل الرئيس الغبى إلى الحكم، وكيف يصنع التعليم المعاصر أغبياء بعد أن صار التعليم قضية أمن دولة، وكلام لذيذ جدا ومضحك يشعرك بالأسف عند انتهاء الكتاب سريعا فى صفحة ١٤٠.



٨٠ مليونًا دفعوا ثمن هذا الكتاب، لكنهم لم يقرؤوه! الشعب المصري بكل تياراته، وفئاته، وطوائفه دفع الثمن. البعض دفع حياته، والبعض دفع حريته، والبعض دفع عقله، والبعض دفع عمله، والبعض دفع عزلته، والبعض دفع غربته، والبعض دفع آماله، والبعض دفع ماله. الكل دفع الثمن لكن شيئًا لم يتغير؛ لأن القانون يحمي المغفلين إذا صاروا حكامًا!



تصميم الغلاف أحمد مراد